(12) بلوغ الذروة

ربما يحار الداعية اليوم حين ينظر يمينًا فى الكتب فيرى أوصاف القادة التى ذكرها الفقهاء والحكماء والأدباء ترسم صورة لها جمال فائق وبهاء، وفى خطوطها ما ينبنئ عن تكامل ومنازل استثنائية إذا قاس نفسه بها ازدرى ما هو عليه، ثم ينظر يسارًا يتمعن فى الواقع ليرى أكثر رجال الطبقة القيادية أهل فضل وإيمان وشجاعة وبذل وذكاء، ولكنهم دون الصورة النموذجية المثالية الرفيعة التى انطبعت فى ذهنه عبر الوصف النظرى، فيبهت، ويأخذه ذهول، إلا أن التأول منه قريب، وسرعان ما يقنع نفسه بأن المكانة التى يفترضها الشرعيون والفلاسفة والشعراء الراثون والمؤرخون للقيادى إنما يتعمدون جعلها رمزًا تربويًّا عاليًا من أجل تحفيز الهُمام لارتقاء وصعود، لعله يصل النصف أو الثلث، والثلث كثير، فيكون ضرب المجازيات وسيلة لاستنزاف طاقة موفق فى نيته يرنو بعيدًا، لكنه مأسور إلى طبيعته البشرية والمقادير المحدودة التى أودعها الله فيها من القابليات ودرجاتها الإدراك والتحمل.

لكن الحيرة الكبرى ليست هذه، وإنما هى التى تستولى على الداعية حين يطالع مسيرة الدعوة فى الحقبة الأخيرة خلال أكثر من نصف قرن، منذ الومضات الأولى حتى الامتداد العالمى، فيكتشف أن الدعوة بحمد الله حافظت على وتيرة التقدم وحشد الإنجازات، ومازالت تنتصر لقضايا الأمة، وتنشر العلم والمعروف والأخلاق، وتزداد خيرًا، وتضخم الصغير الضامر، وتؤجج معنى الجهاد، وتمضى واثقة فى الدرب الحضارى الشمولى، رغم ما هنالك من نزول مستوى الجمهرة القيادية عن الصورة المثالية المفترضة التى انطبعت فى أعماقه لمعنى القيادى.

فكيف يحدث هذا؟ وكيف نفهم الأمر على وجهه الصحيح؟

هنا يتدخل التحليل الموزون منقذًا لكل حائر، ومؤيدًا لكل فائر، فالبركة الربانية التى تتنزل على كل ذى نقية تأويل قريب أيضًا، أقرب من ذاك الأول، ولكن الله يجعل لكل شىء سببًا مرئيًّا محسوسًا معقولا، وما هو بغريب من منطق جريان حركة الحياة.

opeikanali.com

* التحليل المتأنى يرينا أن هذه البركة الهابطة من السماء تتقمص أحد وجوه الأداء الدعوى الجماعى من غير أن يشعر الدعاة أنفسهم، ربما إلا بعد حين طويل من المراقبة ورصد الظواهر والتأمل فيما كان بين كل مقدمة ونتيجة.

إن تجزىء الواقع الدعوى إلى أجزاء صغيرة، إذ هو كتلة مخلوطة مندمجة، يمنحنا إمكانية إعادة تركيب الشظايا المتماثلة، فتنفصل المعانى وتستقل، فيكون من الممكن تمييزها ورؤيتها مستقلة وفهمها.

وعبر محاولاتى فى التفكيك والتركيب: هدانى ربى إلى الانتباه إلى الإشكال بحمد الله، مما يتيح لنا المزيد من الإتقان فى استعمال بعض الظواهر الحيوية والدعوية التى يتيح التركيب فهمها واستعمالها استعمالًا أوسع، وجعلها موردًا من موارد الإنتاج والتقدم والإيجابية، بل موردًا ثريًّا جدًّا يقفز بخطط التطوير قفزات جريئة نحو الأمام، وسيكون فى ذلك ـــ بعد تقرير القضية البرهان الجلى على حاجة الأمر الدعوى إلى الفكر الدعوى حاجة حتمية قبلية، قبل التوغل، فعبر الفكر يمكن فهم المعضلات، وإدراك الطريق الأقرب إلى تحقيق الغايات، ولن يعمر فكر من غير تفريغ داعية مخضرم طال تجريبه، تفريغه من رهق التنفيذ الإدارى اليومى وتدبيرات المعاش، ليصفو له الوقت، ليفكر نيابة عن رهطه، فيرجع لهم بالرأى والفقه والتخطيط والتعليل وسر حركة الحيايسة.

إن العملية القيادية فى المحيط الجماعى الدعوى لها مجريان يكشف عنهما التدبر الهادئ لطريقة ولادة كل خير أو إنجاز أوعمل كبير وإحلاله فى عالم الواقع والتأثير:

* **المجرى الأول:** يكون عبر تجزؤ الوصف النموذجى للقيادى وحلول أنواع من أجزائه فى المجموع، وذلك قَدَر ربانى محض جعله الله تعالى سببًا لظهور البركة، وتأتى الحقيقة التنسيقية المتولدة من وجود كيان دعوى لتترجم إلى «مقدار» من التأثير، يجتمع إلى مقادير أخرى، فيكون زخمًا يحرك الحياة. وهذه إحدى منح العمل الدعوى الجماعى التى لا يغفل عنها الفرديون فقط، بل حتى الدعاة يلبثون فى رفل من عطائها دهرًا، ولربما لا يعرفون دقائق عملية تسلسل ورودها وظهور الأثر الدعوى الإيجابى وكيفيته من أجل السيطرة عليه والتحكم ومضاعفة المحاسن الناتجة منه، وكلنا نلهج بأن من ميزات العمل الجماعى التنسيق،

ولكن نجهل كيفية ولادة هذا التنسيق ومراحله وصوره العديدة، وهو جهل ضار، أقل سلبياته تعطيله للطاقات وهدره بعض «أكمام» طاقات الصفات القيادية التى تيسرها طرائق الفيزياء الدعوية كمثل تيسير فيزياء الكم حصول تأثيرات الأشعة والموجات الضوئية والكهربائية، سواء بسواء، لأننا نعيش وإياها تحت سقف واحد اسمه «الحياة» التى تخضع لقوانين واحدة وظواهر متظاهرة متكاملة، وكما صرخ «ماكس بلانك» الصرخة الثانية فى التاريخ بعد صرخة أرخميدس الأولى وصدع فى برلين أن قد وَجَدها: أن الطاقة ليست: سيلاً متصلاً ولكنها أكمام متقطعة متتالية: يؤذن للداعية الباحث عن «فقه الدعوة» أن يصرخ أن قد وجد «معادلة التأثيرات القيادية»، وأنها معادلة بلانك نفسها تماما، وأن الطاقة الدعوية القيادية إنما هى أكمام موزعة متكاملة، وأن معادلة قياسها هى:

عدد أفراد الجماعة الدعوية × «$6.63 \times 10^{+6}$» = التأثير القيادى الموسمى.

فرقها عن معادلة بلانك أن السالب أصبح موجبًا، فقط، مع التضخيم؛ لأن القياس هنا ليس عبر ثانية، بل عبر موسم.

وذلك أن البحث الدقيق يرينا أن تلك الصورة المتألقة للقيادى، التى رسمها الفقهاء والفلاسفة: لم يخلق الله منها إلا أفرادًا قلائل فى الأمة الواسعة كل قرن، لا طاقة لهم أن يرفئوا الفتق، ولكن الله تعالى بحكمته وزع الأوصاف القيادية على عشرات ألوف فى الأمة، فإنك لا تجد النقى الشجاع المتئد الكريم الصبور الحليم الذكى الفقيه البليغ المثابر الثائر السريع النهضة الحاضر البديهة إلا قليلا، لكنك تجد ألوف الأتقياء، وألوف الشجان الكرماء، وألوف الأذكياء، وألوف الفقهاء، ولا يعدو أحدهم قدْره المختصر الناقص، فيقرن بين التقوى وضحالة العلم، وبين الشجاعة وعىّ اللسان إذا تكلم، وبين الذكاء والغضب، والمثابرة والتهور.

* هنا يأتى أسلوب تركيب الأجزاء الصغيرة المتناثرة والشظايا المبعثرة، كفرع عملى للأداء الدعوى الجامع، فينضم ألف جزء من الشجاعة عبر الخطة لتكوين «كتلة شجاعة» تحتل حيّز الشجاعة فى الوصف النموذجى للقيادة، وتملؤه إلى حد الكفاية وزيادة. وينضم ألف جزء من الذكاء عبر المراكز واللجان لتكوين «كتلة ذكاء» تحتل حيّز الذكاء فى الوصف النموذجى

للقيادة، بل وتتحول إلى «عبقرية» كاسحة للعقول الفردية التى تعاكسها، وكذا الصفات الأخرى، وبهذا الانضمام والاجتماع تتكون «القيادة الجماعية» التى تتمثل فيها الصفات القيادية النموذجية جميعًا إذا أحسن مهندس التركيب تصاميمه وجعل طرق الالتقاء سالكة.

وكنا لا ننتبه إلى هذه الإمكانية المتاحة لتحشيد القابليات المتماثلة التخصصية فى تيار واحد عاصف لأن بقية من المفاهيم الفردية كانت عالقة بنا، جعلتنا ننتظر إنجازًا عظيمًا من الفرد، ونحلم بالقائد الفذ الذى جمع المناقب الفردية، البارع فى كل فن، المعوض بشخصه الوحيد عن نقص الجمهرة، حتى تحوّل هذا الوهم إلى مرض نفسى يوسوس لنا بالإحباط، إذ وجود هذا البطل الشمولى عزيز إن لم يكن أقرب إلى المستحيل، أو نخرج إلى خداع أنفسنا، فنزعم أن فلانًا هو الذى استوعب وجمع وأحصى الأخلاق والمهارات، ولعله هو نفسه أعرف بقدر نفسه وقصوره عن وصف المعجبين به، فيرفض الوهم، فيزداد الأتباع تعلقًا بظنونه يتواضع، ويكرر النفى، ويرفضون، حتى ييأس فيستسلم ويبدأ يعتقد ما يعتقدونه من الإحاطة ومقاربة العصمة، وما يدرى أنهم بصنيعهم إنما يملئون فراغًا نفسيًّا يستبد بهم من حيث لا يشعرون، ويرون فى تخيل القائد الملهم تعويضًا عاطفيًا عن حالة العجز، فيدورون فى لا عقلانية، تُسلمهم إلى لاواقعية، لأن آلة القياس ومعيار الفحص وقواعد فهم الحال وموازين إدراك الموقع من مسيرة الحياة كلها خطأ فى خطأ، وتعمها فوضى، ولو حللوا مثل تحليلنا لعرفوا أن التعويل فى حركة الحياة كما يكون على عاتق الأفذاذ القلائل أهل الكمال: يكون عبر تركيب شظايا الخير أيضًا وربطها وتكتيلها وإطلاقها، فتكون جارفة لما أمامها، فتنعطف الحياة انعطافاتها الكبرى، فإذا كان انتظار الفلتة الخيرية القدَرية صعبًا، فإن التكتيل الألفى أسهل وأسلم وأبقى وأمضى، وبذلك تعود القضية القيادية قضية «منهجية» قبل أن تكون «تفتيشًا عن عباقرة»، وقضية «فكر» قبل أن تكون مزاعم شاعر ومؤرخ، ثم هى هندسة وتخطيط وتقاسم أدوار، وتبرأ أن تكون رؤى مُغرم وإحالة اتكالى يأنف الانسحاب، فيدّعى الحياء من أن يتقدم بين يدى كامل، ويخترع مثاله الأعلى ويوهم نفسه بالإذعان له، وما ثَمّ شىء، والمخرج إنما يكون بإفاقة التوابين، وتوكل السائرين، وأن ينزل كل داعية إلى الساحة العملية الدعوية الإنتاجية مهما عابته أنواع النقص، يعرض ما يحسن، ويهب ما يملك، ليكون مفصلا أو عتلة أو حتى مسمارًا فى الآلة الهادرة.

* وأثناء ذلك لن نزهد بداعية مهما بدا ساذجا، فإن حال مَن اكتشف المغزى الدعوى فبايع لن يُغلق على عجز تام، بل إن كان بطىء الفهم فاتر التعلم فقد يكون سريع النفرة جادًّا فى الجهاد، وإن كان قليل العبادة فلربما تلمس منه لمعة اجتهاد، وهكذا سائر الصفات، وبإمكان «غرفة السيطرة التربوية» أن تشخّص حالته وتكتشف مقادير العدل والعوج فيه، فترشحه لما هو له أهل، وتصبّ فيه خيرًا، وتقوم بتجبير رجله العرجاء، يستوى مهرولا، ثم تقدمه هدية إلى «غرفة السيطرة الحيوية» لتعصره وتستنزف منه كل سيل الأكمام.

وما قلناه من أن الدعوة تتقدم فى طريق الإنجاز بخطى واثقة، وأن ذلك يحيّر الداعية الذى رَصَد فصدمه غياب المثال الأعلى الشمولى: فيه دليل على أن الجيل الماضى من الدعاة والجيل الحاضر قد أدركا عطايا العمل الجماعى وأثر الأداء الدعوى فى إبراز القيادة الجماعية، ولكننا نتحدث عن مستوى هذا الإدراك والوعى، وهل هو تام أو بالمستوى الكافى الذى يجد لكل الطاقات قنوات خيرية تجرى فيها.

هنا أنا أزعم أن ذلك لم يكن كافيا، لا لضعف فى الهمم، بل لضعف فى فهم انسياب هذا التوزع القدرى للصفات فى مجموعة الدعاة كلها، والرزح تحت ثقل مفهوم القيادة الفردية، فلم يكن حشد التخصصات وافيا، ولا إجراءات التكامل، وكنا ندع المبدع لقدره، يعرض نفسه إن استطاع أو ينسحب ويركن لخمول، وفراستى تدلنى إلى أن تحليل طريقة عمل القيادة الجماعية إذا شاع وآمن به الدعاة فإن أضعاف حجم الإنجازات السابقة مرشحة للظهور والحلول فى عالم الواقع فى السنوات العشرين القادمة إن شاء الله، وهى سنوات الحسم كما تفيد معالم التطور الدعوى.

* القَدَر يضمن كتلة إيجابية فى الجماعة كل يوم لكن يتبدل مُكتّلوها.

*** المجرى الثانى للعملية القيادية فى المحيط الجماعى:** استثمار اللحظات الرحمانية فى الداعية الواحد وانتظار تراكمها ليتكون منها رصيد يكفى لإحداث زخم مؤثر فى مسيرة الدعوة، ثم لاحقًا فى حركة الحياة.

وسبب هذه الظاهرة أن ساعات المؤمن ليست متساوية، وإنما هو يتأرجح بين رغبة وعزوف، ونشاط وكسل، والمربى العاجز عن إدراك هذه الحقيقة الخَلقية يعتدى على نفسه

obeikandl.com

وعلى الدعوة فيجنح إلى تضعيف المتأرجح إذا قضى الله أن يأتيه ويربيه حين استيلاء قَدَر الكسل عليه، ولا يفطن إلى ضرورة الصبر على خطوه الوئيد الذى سيتسارع مع ورود الخير والنشاط وفق عملية التناوب التى لمهرة المربين خبرة بها، ولو هدى لصبر وسمع صدى بذله، ولكنه يستعجل ويخرج إلى ملل، مع أن العقيدة تقرر بوضوح أن الإيمان يزيد وينقص، والصحابة تقرر أن للقلوب إقبالاً وإدبارًا، لكنه لا يتعمق فى فهم مغزى هذا التقرير.

والمجتمع الدعوى حين تسوعه أثناء مراحل العمل المتقدمة يصير مجتمعًا ضخمًا جدًا نقدره بعشرات ألوف المخضرمين والقدماء، مع أضعافهم من الجدد وأنصار الدعوة، حتى يكون المليون هو وحدة الإحصاء، فلربما ربع مليون أو نصف مليون أو المليون كاملا وأربى، فتكون الومضات والنبضات والسكون والجوامد والسكتات فى هذا المجتمع الضخم مختلطة، إذ الشيطان لا يزور الجميع فى وقت واحد، وإنما يغزو، فغافل ومنتبه، ولذلك تضمن الصفة الجماعية وجود ثلة يقظة متحفزة فاعلة فى كل وقت، ليست ثابتة الأشخاص، وإنما هم يتبدلون، لكن ضمن هذا المجتمع الضخم، فلن تُغلق الجماعة وأنصارها على تفريط وتضييع وخمود، بل فى لحظة القياس الواحدة هناك شطر من مجموعة الدعاة دائب فى العمل والإنتاج، لكن الأشخاص الذين يمثلونه يتبدلون، كمثل تبدل أشخاص الخفارات فى الجداول الإدارية لتنفيذ الأعمال الاستثنائية فى غير وقتها الطبيعى، وبين التقدم والتأخر منازل، وأصحاب الدأب سائر ومهرول وراكض ومحلق ذو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ثم أصحاب العزوف فاتر وبطىء وواقف ومسرف يتراجع ومَن هوى، والمهم أن لا تفزعنا أخبار التسيب، لأن لنا فى أخبار الباذلين سلوة، والشطر المعافى القلب من كتلة الجماعة، المعروف بوصفه فى كل حين لا بأسماء أفراده: هو الذى يجب أن تلحظه غرفة السيطرة القيادية وتسعى لتوظيف نبضاته ضمن البدائل التخطيطية الكبيرة، وبمثل هذا كان تطور الدعوة دائمًا كأسلوب ثان مقترن بأسلوب تركيب الشظايا، وبمثل هذا سيكون استمرار تقدمها المستقبلى، والكل تحت المشيئة الربانية وفى خضوع للقدر الخيرى الذى ينتخب أصفياءه، ولقدر الشر الذى يستزل ضحاياه، وكل ميسر لما خلق له، وقد رُفعت الأقلام وجفّت الصحف، وقد تبدو بعض ملامح الحكمة فى التوزع إذا كان المؤمن يقيس وفق موازين الشرع، ثم قد تبدو له بعض الطرقات التى تسلكها الحياة عند تحركها وإن كان هناك ضباب، ولكن الله جعل الإتقان سببًا للإجزال،

وغاية هذه التحليلات إقناع الدعاة بوجود تطور دعوى ينتظرهم إذا أتقنوا التحرك المنهجى الواعى هو أضعاف ما يحصل من السير العفوى.

البؤرة القيادية الجامعة لمتناثر الإيجاب

والذى يتحصل من هذه التحليلات أن القادة ثلاثة:

* فقائد فرد بلا أعوان وأتباع، وإنما هو يعمل مستقلًا لوحده، يحركه الإخلاص، وتستفزه مصالح الأمة، فيحاول تقديم ما يستطيع فى صورة أمر بمعروف، ووعظ وحث، وكتابة وتأليف وأداء إعلامى، وهذا هو أشبه أن يكون من صنّاع الحياة من أن يُسمى قائدا، وفى حالة تتضح أهمية الصفات القيادية العالية فى تقرير نجاحه فى إحداث تأثير فى جمهور المسلمين أو محدودية الأثر، فلا شك أن عمق إيمانه وقوة شخصيته ووفور علمه وبلاغة لسانه وقلمه ورصانة منطقه وحِدّة ذكائه: كل ذلك يحدّد درجة تأثيره، إذا ساعدته أسباب أخرى، من الصحة، والفراغ، والمال، والأمن.

* وقائد دعوى، وهو فى الصفات مثل الأول، لكنه يعمل مع عصبة من أمثاله، فتزيده المحاورة والمناظرة نضجًا ووعيًا، ويزيده شعور الانتماء الجماعى ثقة، فيكون أصبر وأشجع، ثم هو والعصبة الأقران يمارسون الفذلكات التنظيمية والتخطيطية لتجميع وتركيب الشظايا الإحسانية الإتقانية المتوزعة فى الأتباع الكثيرين، فتتكون من ذلك عملية قيادية جماعية واسعة عريضة، توفر جميع أنواع الصفات الإيجابية، من إيمان وشجاعة وعلم ووعى، بكميات ضخمة تتحول إلى تيار جارف للأضداد، فتكون تحولات كبرى فى مسيرة الحياة فى القطر الذى تعمل فيه، كمثل ما انتقت عصبة العلماء اليورانيوم الخصب، واستوعبته فى ثلاث وعشرين من الأوعية الصغيرة، ثم دمجها فى لحظة الحاجة، فتحقق الوزن الحرج لليورانيوم الخصب، فحصل الانفجار النووى الذاتى ودمرت ناكازاكى وأزال كبرياء اليابان، وأنا اقدر مثل هؤلاء القياديين الذين تتكون منهم البؤرة القيادية المتمكنة من جمع الشظايا المتفرقة وإزالة كبرياء مانعى الحرية بمائة قيادى فى البلد المتوسط ذى العشرين مليونًا، وبمائتين فى بلد كبير ذى ستين مليونًا، ووجودهم ضرورى، والقول بإمكان تحصيل جهد قيادى عام من تجميع الشظايا القيادية لا يلغى الحاجة لهؤلاء؛ لأنهم هم أصل هذه العملية التركيبية، وهم مهندسوها.

* وقائد رجل دولة، يماثل قادة الدعوة فيما يفعلون من حشد الطاقات الصغيرة وتوظيفها فى عملية قيادية جماعية، إلا أن الفرق يكمن فى أن قادة الدعوة يستعينون بالترغيب، لأن الأتباع إنما اتبعوا عن رضا وطواعية، ورجال الدولة يعينهم الترهيب من بعد الترغيب، والقسر والإلزام والإجبار الذى يحصل إلى درجة البطش، وهنا تكمن نقطة الضعف الكبرى التى يمكن أن تستثمرها الجماعات المعارضة، إذ إن أصحاب الكفايات يخضعون زمنًا، ثم يفتشون عن طريق للتملص والنجاة، وكان صدام حسين مثلاً يأمر بإعدام الهارب من جبهة الحرب الإيرانية أمام داره ويجبر أمه وأخواته وخالاته وعماته أن يزغردن لحظة قتله، وكان نسيبه حسين كامل يضرب رؤساء المهندسين ويجعلهم مثل الكرة بين رجله إذا تأخر أحدهم خمس دقائق عن وقت بدء العمل فى معامل التصنيع العسكرى، وكان نادر شاه قبل أكثر من قرنين يجعل عوائل جنده رهائن يبيح أعراضهن إذا هرب الجندى، فى عشرات الأساليب التى يبتكرها مَن يتسلط، وذلك دأبهم منذ التاريخ القديم، والقرآن الكريم يتحدث عن تقتيل فرعون لأولاد بنى إسرائيل، وإنما نجا موسى عليه السلام بمعجزة، إلا المتسلط الأقرب إلى العدل مع قومه، فإنه يستخدم الترغيب والترهيب معًا فى تكوين عملية قيادية جماعية، وهو ما حدث فى الغرب فى القرنين الأخيرين ودفع المسيرة الحضارية وحكر نتائجها لنفسه دون أمم الأرض، فأوصله إلى مرحلة العولمة التى هى فى حقيقتها: الانفراد بالقيادة، ولولا أن الدعاة يعلمون أن الظلم مصرعه وخيم لوصلوا إلى يأس، لكنهم يفهمون من مجمل موازين الإيمان والسنن الإلهية الكونية أن ظلم الحاكم لقومه أو ظلمه لغير قومه سواء، وعما قريب تفتق الفتوق على الظلم الاحتكارى الغربى وتتنفس أمة الإسلام، لابتناء العملية القيادية الدعوية على الرغيب المحض دون ظلم مبدؤه الترهيب، والأمة فى حالة فراغ قيادى، وكفر بالنكرات، والقيادة الدعوية هى التى ستملأ الفراغ، وفقًا لفيزياء أرخميدس العتيقة الأولى الإزاحية، دون حاجة لشهادة من بلانك وفيزياء الكم وأخبار مختبرات القرن الحادى والعشرين.

فى غير الدعاة طاقات شتى يمكن أن توظفها الخُطة الدعوية

هذه الظاهرة فى تركيب شظايا الصفات القيادية عبر العمل الجماعى تعمل كذلك فى المحيط الاجتماعى العام الأوسع الذى لا يربط أفراده التزام مع الدعاة، وليس فى المجتمع

الدعوى الخاص فقط، وبذلك يمكن توظيف طاقات أهل النقص والعيوب أيضًا، ومَن يتألم منهم القائد الفردى وينكر حالهم، لا طاقات الدعاة فقط.

* فالوعاظ والكاتبون يكثرون من ذم الناس، ويرون تبدل الزمان، وذلك دأبهم جيلاً بعد جيل، منذ صدر الإسلام، فيقول أحدهم:

ذهَب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكَر
وبقيت فى خَلَف يزين بعضه ... بعضًا، ليدفع معور عن معور

وقال آخر: نحن فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر إلا إقبالا، والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعا. اضرب بطرفك حيث شئت: هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقرا، وغنيًا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ بحق الله وفرا، أو متمردًا كان بسمعه عن سماع المواعظ وقرًا؟

وهذا من القول الصادق، وهكذا هى الحياة، وهذا هو المجتمع، لكن الطريقة الدعوية فى التعامل مع هذه الحقائق المؤلمة تختلف جدًّا عن طريقة الفردانيين مهما صلحوا.

* تختلف أولاً فى الوصف، فما ذكروه إنما هو ظاهرة عامة يتلبس بها أكثر الناس، لكن الاستقراء الدعوى يأبى أن يقول: إن جميع الناس قد تلبسوا بهذه الأسواء، وإنما هناك بقية ذات بقية، هم الذين عنتهم الآية حين يقول القرآن: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [هود:116] ، وأول هؤلاء: المكابدون الذين زفروا هذه الزفرات واستفزهم الجحود والجهل، وعلى هذه القلة التعويل فى الإصلاح إذا اجتمعت وانتظمت ووضعت خطة الاستدراك واستقبلت الحقيقة المرة استقبالاً إيجابيًّا ينطلق من عزم مُبْرَم على احتلال الموقع القيادى فى المجتمع، ومن موطن الفوقية يمكنهم بث التربية والترغيب، مع مقدرة على النهى والترهيب عند الحاجة، بعدل وبمقدار، فتكون مقاربة.

* ثم تختلف ثانية فى المقدرة الدعوية على التعامل مع هؤلاء الناقصين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أحد أنواع النقص هذه، وهذا مؤسس على رأى وفكرٍ دعوى أسبق منه يقوده، مفاده الإذعان لهذه الحقيقة التى استفزت الصالحين: أنها شرٌّ ملازم وظاهرة فى الحياة

obeikandi.com

لا يؤذن لأحد أن يكون عنها بمعزل، فأحلام المدينة الفاضلة الفلسفية وهْم، وأكثر المجتمع يرزح تحت نوع من أنواع الظلم والسلب والكفران، وإنما التعويل على «فن الصفوة المؤمنة» فى تحصيل جزء خيرى من الناقص فى ساعة من ساعاته ينتظرونها فى شكل أريحية تغمره يعرفون بالفرادسة متى تعتريه، فيوافونه حين ورودها، فينتزعون منه ما يأباه فى الساعات الأخرى، أو يدغدغون عواطفه فيصلون إلى مرادهم منه، ثم يعطونه مهلة أخرى طويلة، ثم يعاودون، أو يفهمون إملاء الظروف والتحديات الكبيرة على النفوس، فيتقربون من مترف أيقظته المواجهات الحاسمة، فيستخلصون منه مشاركة عما قريب ستنقطع إذا بردت المنافسات، فيجمعون ما يأتى من هذا وهذا وهذا، التى لعلها أرقام مليونية، فتكون زخمًا مؤثرًا فى الحياة تمكنت الخطة من جمعه وتوجيهه كتيارٍ فاعل، وربما أتت هذه المشاركات فى صورة عمل شجاع جهادى، أو تبرع بمال، أو كتابة مقالات صحفية تدافع عنّا، فى أشكال أخرى كثيرة، أدناها: منح صوته الانتخابى لنا عند الاقتراع، أو الشفاعة لداعية، أو رفع ظلم، أو إهداء سر، وكل هذه الأفعال الخيرية ممكنة من فاسق وجاحد وبخيل وغافل، لا على سبيل التخُلق الدائم، وإنما على سبيل الفلتة الموسمية عند استيقاظ قلبه من غفلة مسطرة هى الغالبة عليه، ولكن الحنين إلى الفطرة يجعل انتباهته ممكنة، وإن كانت نادرة، والفردى المتألم الذى قال الشعر الآنف لن يعدو قدره، وما هو بمستطيع أن ينتفع من إفاقات السادرين، وكذا أمثاله، لكن الفن الدعوى عبر التخطيط الحسن يمكنه ذلك، فيجتمع الخير الصغير إلى مثله، ثم إلى أمثال كثيرة له، فيكون خيرًا كبيرا، ولن تستنكف الطريقة الدعوية من ذلك؛ لأنها تدرك أنها مجبرة على أن تتعامل مع حقيقة حيوية آيتها: أن أغلب الناس صرعهم نوع من السوء أو أكثر، ثم يجمعون معها التعامل مع حقيقة حيوية أخرى مفادها: أن الناس قائد ومقود، وأن الدعاة عبر احتلال المركز القيادى يمكنهم تركيب شظايا الخير فى المجتمع العام أيضًا، وحشدها فى تيار واحد، وهم فى عملهم هذا كأنهم يستثمرون العطاء الربانى المذكور فى قول أبى الدرداء رضي الله عنه: «تعرضوا لنفحات رحمة الله؛ فإن لله نفحات يصيب بها من يشاء من عباده» وذلك لأن الفعل الحسن الذى يبديه أى مسلم إنما هو انعكاس لهذه النفحة الربانية فى ساعة من الساعات الرحمانية، ولسنا ندرى على وجه التعيين مَن هو السعيد الذى تصيبه النفحة فيفعل خيرا، لكن هى موجودة فى كل ساعة، والفن الدعوى يكلف الداعية أن يطوف

obeikandl.com

الصفوف وزوايا المجتمع يبحث عنها ويقطف أزهار من حلت فيهم النفحات كما يخرج العطار أيام الربيع يجمع أزهار البابونج الصفراء ليسقى نقيعها من بعد إلى لاهث فيتنفس، أو كما يجمع الأزهار الزرقاء فى بوادى خُراسان ليسقى ماءها إلى مهموم حزين فيسرى عنه وينطلق مبتسمًا من بعد عبوس.

* وقريب من مغزى هذه المعادلة قول الشاعر:

الناس إخوان، وشتّى فى الشيَم

فهُم يستوون فى الخِلقة الإنسانية، وبينهم قاسم مشترك حتى فى الأخلاق، من حياء ورحمة مثلا، واحترام الكبير، ونجدة المظلوم عند الاستطاعة، لكنها فى المقادير الدنيا من هذه الأخلاق، وتكاد أن تتلاشى عند بعضهم، وأما المقادير العظمى من هذه الأخلاق وغيرها فإنها تتوفر فى معظمهم، ولكن بصورة مقصورة، فلكل فرد خُلق واحد يحل فيه بمقدار كبير، وبه يوصف ويكون له جنسية وشهرة، وأما بقية الأخلاق فهى ضامرة فيه، إلا مَن رحم ربك، فيقال: فلان كريم، وفلان حليم، وفلان حريص على التعلم، وأما الذين يجمعون صفات عديدة خيرية فى آن واحد فعددهم قليل.

وفى شعر البحترى يمدح صاحبه أن:

خِصال النُبل فى أهل المعالى مفرقةٌ وأنت لها جِماعُ

والشاهد فيه أنه يلتقى مع ملاحظتنا ويؤيد أن «خصال النبل فى أهل المعالى مفرقة» موزعة، ومعنى ذلك أن اليد الخبيرة والخطة الماهرة تستطيع أن تجمعها وتجنيها كما يجنى البستانى الثمر ويتم التعبئة ويتاجر به، فالخطة الدعوية يمكنها إنتاج أعداد كبيرة من هذه الوحدات الأخلاقية المجمعة المعبأة فى عبوة قياسية نموذجية، فتكون كأنها نسخ كثيرة من هذا النبيل ممدوح البحترى، وبهم تصول الدعوة صولتها التفوقية.

منهجية الأداء القيادى تتيح توجيه المشروع الحضارى

ومثلما ينتظم الأداء الاقتصادى فى الحياة البشرية عبر مجموعة من الأثمان والأوزان تحدد مراتب الأشياء وتمنح قيمة نسبية لكل جهد أو خدمة أو معدن مستخرج أو مادة خام تلتقط، ومن ثم قيمة لكل منتوج هو حاصل الجمع بينهما، وإرجاع كل ذلك إلى قيمة الذهب كمحور

obeikandi.com

تدور عليه التقويمات: فكذلك العمل الفكرى السياسى الاجتماعى: إنما ينتظم عبر وضوح أثمان مفرداته وأدوات تشكيله، وتحديد مراتب الجهود والخدمات، وترتيب جدول «النظام القيمى» لأنواع الأداء فيه، والشأن الجامع لهذه الظواهر أنها تتكامل مع العلم التطبيقى ومع الأدب والرصد التاريخى وبقية العلوم الإنسانية، ومع الفن، لتكوين أداء أوسع وأشمل: هو الأداء الحضارى، الذى تحتاج كل أجزائه إلى هذه الأنظمة القيمية، من أجل أن يسترسل مستمرًّا، فإن أصاب التقويم بعض خلل وفوضى، بتصغير الكبير، وتكبير الصغير – اضطرب الأداء، ونقص بمقدار المفارقة والجنوح.

هذه المقدمة ضرورية لفهم مكانة «القيادة» فى المشروع الحضارى الإسلامى المعاصر، وقيمتها وبيان أهمية دورها، وتأثيرها فى الأداء الدعوى الذى يقود بمجمله هذا المشروع الحضارى، فى عملية قيادية مركبة، بؤرتها أولئك المائة فى البلد المتوسط والمائتين فى البلد الكبير. بمعنى أن العمل الدعوى يقود المشروع الحضارى الإسلامى عبر جميع أنواع الأداء، مثل الأداء الفكرى والفقهى الاجتهادى، والأداء العلمى العام، والأداء السياسى والاقتصادى والاجتماعى والإعلامى، وإحياء عوالى المعانى بالأدب، وترويج النظر الجمالى بالفن، بوسائل التخصص والجماعية والأنماط المؤسسية، ثم يتقدم الأداء القيادى من بين كل ذلك ليقود بدوره هذا العمل الدعوى، طبقًا يركبه الأداء عن طبق، فى تداخل وتظاهر، بها تكون «القيادة» المحور الثانى بعد محور «مجموعة الأحكام والموازين الشرعية والفكر الاجتهادى المستند إليهما» فى عملية الأداء، وهذه المحورية تمنح القيادة ولا شك أهمية بالغة وقيمة استثنائية كبيرة فى سُلم القيم، تستوجب بالتالى أنواعا من الاحتفاء بها، والإعانة لها، وتطويرها، وتوفير احتياجاتها، ورصد حصة من الجهود لتحقيق وجودها بمقدار مناسب، مع تقنين حقوقها وواجباتها بما يضمن الوضوح فى الآداء القيادى، والاستمرارية، وإخراجها من أن تكون آنية، أو عفوية، أو مشتبهة غامضة، إلى أن تكون مُحكمة هادفة دائمة.

تكوين داعية واحد إنما تترجمه عملية جماعية ذات ألف تأثير

ولئن كانت الثوابت الفكرية فى الدعوة تمثل شطر الضمانة فى عدم الانحراف، واللبث الدائم على الخط، فإن «ثبات» زمرة القادة المائة أو المائتين على الخط، وإبداء الشمم والأنفة إزاء المغريات ودواعى اللين، والصلابة فى اعتقاد ثوابت الفكر: يمثل الشطر الثانى فى

openkamal.com

الضمانة، وهو الذى يمنح السير الدعوى استقامته، واستقلاليته عن الأغيار، والانتصاب فى عرصات الحياة كتلة متميزة يرصدها الناظرون والمتعاملون بسهولة، فيؤمها المؤمن آنذاك، والتائب، والمستدرك، ومَن جرّب الأغيار فزهد وانفضح له عوار كل كتلة جاهلية على الساحة، وهذا يعنى أن العملية التجميعية تستند إلى هذا «الشخص القيادى المميز» مثلما تستند إلى البشارة والنذارة و«الاتصال الفردى» الذى يقوم به الداعية فى حركته اليومية، مثلما تستند أيضًا إلى المساندة الإعلامية والنتاج الفكرى والآلة الدعوية التى يمسكها الداعية بيده ويقدمها إلى المدعو، من كتاب وصحيفة وشريط، وبذلك ينهار الزعم الذى زعمه الافتراض الواهم بأن نشر الدعوة يمكن أن يكون عبر الاتصال والواجب الفردى فقط، وهو افتراض لا يشهد له تحليل العملية الدعوية وكيف تتم عبر تكامل مكوناتها، وكانت له جناية على المصلحة الدعوية، فقد عطّل التجميع الواسع، وعطل الإيجابيات التربوية الكثيرة المنبثقة تلقائيا من حالة النجاح فى رؤية الدعاة أنفسهم يزدادون، وأول تلك الإيجابيات: الثقة بالنفس، والاعتداد، وتأسيس الأمل، وارتقاب الفرج. وتنتج من حالة الجمود الناحتة من العدد ولابد أسواء مقابلة. أضرها: اتهام النفس بالعجز، والانحدار فى درك التشاؤم، ووساوس من ألوان الإحباط، فما يكاد أحد من أنشط الدعاة أن ينجح فى كسب فرد جديد يحوله من سائب إلى ملتزم، لانقطاع متوالية المؤثرات المنتجة لمحفزات كثيرة هى التى تدعو ذلك السائب إلى التعلق بمن يمنحه إياها، وبذلك لايقتصر هذا الافتراض الواهم على تعطيل التجميع وإنما يؤدى أيضًا إلى تدمير نفسى تدريجى يدبّ بخفاء يعطل التطلعات التى اكتسبها الدعاة القدماء، فيصيبهم خَدَر، وتثاقل إلى الأرض، وتعويل على معجزة غيبية ترفع عنهم رهق البذل والصبر، وتظهر موجة من رؤى يطلبون تفسيرها عند الصالحين أومن كتاب ابن سيرين، ولربما استبدت بأحد الدعاة ذكرى الأيام الطيبات فيجد فى ساعة خفة ميلاً إلى انتفاضة على واقعه، لكنه سرعان ما يكتشف أنه كالأسير الذى أوثقته الحبال والقيود، لن تزيد حركته عن تململ، ويكون أعجز عن خاطرة ثانية تطرقه، حتى يستسلم عند ثالثة أو رابعة ربما، كأنه طير ذبيح تتناقص رجفته حتى يسكن، فيعود الداعية محبوسًا فى جلده، يرى بعينه، ولا تسعى قدمه أو تبطش يده، فتتوالى مجموعة أسواء ثانية تغزوه ولا يستطيع لها ردًّا ولا طردا، بينما تضمحل هذه الظواهر السلبية فى الأيام الطبيعية حين يكون التكامل بين

شخوص القدوة والذخيرة الفكرية والأداة الإعلامية منتجًا لتجميع وازدياد، حتى الساذج والكسول والعاجز الذين لم ينجحوا فى كسب جديد إنما تعتريهم نشوة نفسية عبر فرحهم بالتوفيق الذى يجرى على أيادى غيرهم من الدعاة، لأن الدعوة ملك مشترك لا يحوج أحدًا إلى إبداء حسد أو تفكير باستئثار، فما من جديد يضاف إلى الرهط إلا ويشعر الجميع بأخوتهم له وبازدياد الرصيد الجماعى، إذ كان انضمامه نتيجة اجتماع جهد من الجميع رغم انتساب الوافد إلى داعية واحد، ليس فقط فى صورة فكر دوّنه أحد آخر أنتفع به الجديد، أو فى انتصاب القيادة قدوة رمزية له، أو فى بذل خدمات مؤسسية زادته قربًا، وإنما حتى فى صورة دعاء من ذاك العاجز، أو تمويل من الآخر الكسول، أو تكثير سواد من الساذج لمنظر المجمع الدعوى قذف فى قلب الجديد نسبة من الطمأنينة مهما كانت ضئيلة، وهذه التحليلات ما هى من الخيال، وإنما هى من الخبرة التجريبية التى يكتسبها الدعاة عبر الممارسة الطويلة وتقلبهم فى يوميات العمل والقرب من العاملين فى الساحات الجزئية فيتراكم رصد مسالك الدعاة فى العمليات التبشيرية التجميعية لدى كل مراقب من التربويين والمخططين حتى يخرج الواحد منهم باستنتاج مماثل لهذا يستيقن معه أن كسب فرد جديد إنما هو عمل جماعى تعاضدت فيه جميع أنواع المؤثرات، لكن القائد إذا عزل نفسه عن مخالطة أتباعه فى ساحاتهم الجزئية واعتمد الوكالة والرواية، فإنه يوشك أن ينسى هذه العوامل الجماعية فى إنجاح الاتصال الفردى، فيزعم إمكان تحصيل نتيجة من الأداء الفردى ويغفل عما يظاهره، فيرهق أتباعه من أمرهم عُسرًا، ويكون التعطيل، ثم الدمار النفسى، بما سوغ لنفسه من عزلة عن المجموع المنبث فى الساحات العملية الجزئية، فما عاد يرى المراحل السبعين التى تمر بها عملية «ضم جديد» إلى صفوف الدعوة، والتى يؤثر فى معظمها مجموع التنوع التخطيطى، وفنون وأساليب الأداء التنفيذى، ويكون «ثبات» القيادة من بعد «ثوابت الدعوة» من جملة المؤثرات الحاسمة فى تحديد وجهة الجديد واستمراره وتصاعد أحاسسه، وكلما زاد الحضور القيادى فى هذه العملية: زاد ولاء الجديد، واقترب أكثر فى اطراد، حتى لتتحول العلاقة إلى نوع هيام بالقائد إذا كان متميزا فى معانيه، بليغًا فى مبانيه، ثم إلى تعلق قلبى شديد بالقيادات الدعوية المتكاملة الأدوار، من إعجاب بشعراء الدعوة واتخاذ أبياتهم شعارات وحِكم يرددها، ومن اعتقاد لاجتهادات مفكرى الدعوة فى ربطهم بين الواقع المتجدد والموازين الشرعية، ومن اقتناع

بتحليلات سياسية يدلى بها قياديون آخرون، وارتداع عن غىّ وإبطاء عن المعصية تقذفه فى قلبه تخويفات الدعاة الواعظين، وانتفاع بمقارنات تاريخية تكشف عنها بحوث المؤرخين، بحيث إن «الجديد ما بين انتباهته من رقدة الغافلين حتى استوائه ضمن الصف» يكون قد تعرّض ربما لألف دفعة تأثيرية قيادية بدرت من مائة داعية قيادى فى بلده، من بين سياسى وأديب وفقيه ومورخ وفنان وإعلامى، يتصدرهم القائد الأول بهيبته وسمعته وحُسن سمته ودله وهديه، والقابع منهم فى زنزانة ليس بأقل تأثيرًا وتحفيزًا عبر قيام قصته كدليل عملى على البذل والثبات، ونقل الملائكة لخبره إلى قلوب طاهرة، حتى الشهيد فى قبره شريك فى تربية كل جديد، بما ضرب من مثل على صدق انتساب القافلة المعاصرة لقافلة ربانية واحدة عتيدة تحدث عنها القرآن، وهذا المعنى القانونى لشهادة مسلم قتيل هو أحد المعانى التى يتضمنها اصطلاح «الشهيد» فى العرف العقيدى الإيمانى، فإنه فى أحد مراميه: هو شهيد على وجود ظلم، وشهيد على أن ما معه هو الحق الذى ما زال يحمله منذ ألوف السنين ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:146] فيثبت بشهادته القضائية هذه «الأصالة» وعراقة الانتماء. وتقترن بهذه المؤثرات الألف على طول المدى ألوف ومضات أخرى مماثلة تأتى عبر الحدود من مجموعة القياديين فى العالم لتؤثر فى الجديد الثاوى فى أى قرية، عبر كتاب أو خبر، وقد أتاحت المخترعات اليوم ذلك، فإن كان البلد «سجنًا كبيرًا» توصد أمام هذه المؤثرات الإسلامية الخارجية أبوابه: قام من ذلك دليل على وجوب مضاعفة المؤثرات القيادية المحلية، وليس العكس، كما ذهب إليه وهْم الزعم بتجريد العملية التبشيرية الفردية من أبعادها الجماعية ومواردها القيادية، وهو الوهم الذى سيطر على قيادة من القيادات أكثر من ثلاثين سنة حصل فيها تجميد التنظيم وتعليق التخطيط والتنفيذ وتبكيت «الفرد المقصوص الجناح» بعدما وهن عن خفقات يطالبه بها إعنات تعجيزى يتجاهل ظواهر الحياة، وكل التسويغ عند الاحتجاج يستند إلى منطق تجنّب محنة، دون النظر إلى أن هذا التجنب يؤدى إلى تفويت استنبات جيل جديد، ويؤدى إلى ذبول القديم.

هذا ما لقّنتنا إياه التجربة الميدانية والنزول إلى المستويات الدنيا فى أكثر من قطر مع اختلاف الساحات الجزئية، مما تركنا نجزم بأن الأداء القيادى هو الشرارة القادحة لزناد

العمل الإسلامى العريض، فإذا افتقدنا الصاعق: دام السكون، مهما كان المخزون قابلاً للانفجار أو الاشتعال، وهذه حقيقة قَدَرية وسُنة كونية، ليس من الصواب تجاهلها، وأولى إسالتها بترتيبٍ وتقنين وسلسلة صِمامات آمنة ومسالك ومداخل، فى عملية توزيع تسيطر عليها رقابة ومنظومة قيم وأوزان تجعل لكل شىء قَدْرا، وهو ما يعيدنا إلى المعايير التى سلفت فى صدر الكلام، وإلا فإن عاصفة ذات رعد وبرق قد تفجأ، فتسقط صاعقة ينفجر بها المخزون المكشوف القابل للانفجار حين يُترك عاريًا، وهو فى مثل العراق يكون فى صورة هنود خضر يغزونه من جبال الجزائر مهلهلين، ويرمون سهامهم النارية فيكون اللهيب، وهو الأمر الذى خفته وأرعبنى وأرهبنى وأقلقتنى توقعاته فأصدرت فتوى بكسر حاجز الفردية وأجزت الحَفَظة أن يؤمنوا الطرق ويمنعوا قطع السبيل المسترسل المنساب الهادئ، فإن الوهم فى الزعم أورد احتمالاً لفوضى ذات هَرجٍ من حيث أراد صاحب رأى التعطيل منعها، لغياب هذا التحليل عنه حين افترض افتراضًا خياليا سريعًا إمكان ما لا يمكن وتسليك ما لا قناة له، ونسى الطوفان إذا تراكم الماء بلا تصريف، ولم يعظه ذكر سيل العرم حين تلاوة القرآن، وكأنه يستروح أن المحنة حين ذاك لا تقع عليه وعلى مقلديه، وإنما على دعاة تجاوزوا وخرقوا الأمر، وكأنهم ليسوا ضحية خطأ التحليل، ولا تدرأ الغضبة عنهم شبهة التأويل.

تجريد عملية التجميع من روافدها القيادية يوقفها

وفى التطبيق العملى لظنون إمكان تجريد العمل الفردى عما يسنده من التأثير الجماعية قطع الامتداد الزمنى المستطيل إمكانية تصويبه، فإن الخطأ حين التجريب الأول قد لا يبدو سريعًا موضع المفارقة فيه، فيمنح المختلفون مدة انتظار طويلة يرجون بذلك فرصة إثبات الظنون عمليًّا أو قيام شواهد نافية وقرائن تلغى الظن، وقد حصل ذلك بما فيه الكفاية وزيادة، وطرأت ظواهر ضعف عمّت أكثر أفراد الجيل القديم، **أقلها**: وقف التطور فى المستويات التربوية، فيحافظ المرء على ما اكتسبه وما يكاد. وأما النحت فكثير، والصدأ وذهاب البريق، وخمول الذهن عن تداول المعانى الدعوية، وتشتت القلوب مع الهمم الدنيوية، وضمور الأحاسيس الأخوية، حتى أن تعمّد الزيارة والتفقد لا يكون بتاتًا، ويكتفى باللقاء القَدَرى التصادفى، وهذا حال يقوم كبرهان على خطأ ظن تجريد وَرَدَ به التجريب، ويمكن أن تقع هذه

القصة فى بلد آخر، وبذلك تعدى قولنا أن يستند إلى التحليل فقط، بل إلى مفاد الواقع المنظور جليًّا، وتعدى أن يكون رواية إلى أن يكون تقرير درس دعوى على الدلالة.

* هذا يعود بنا بلا نكير إلى ما تقرره بدائه العقول وما قررته ملاحظاتنا الأولى من منح العمل القيادى أهمية محورية وأساسية فى المسيرة الدعوية، ليس إسناد عملية التجميع الفردى إلا واحدًا من وجوهها العديدة، وذلك أن الموقف القيادى الصلب هو الترجمة العملية أيضًا لثوابت الدعوة الفكرية، وعن القيادة ينبثق حسن التخطيط، وشخوصها يحقق الامتلاء النفسى عند الأتباع، ويجلب الوحدة، ويكبت الفتنة، وحقائق الاقتداء تنبعث تلقائيًّا بلا إهابة وتكرار تذكير، وأيما رأى طارف مفيد سوف لا يبقى حبيس صدر صاحبه، بل يجد له مسربًا عبر القيادة التى تعممه وتضيفه إلى رصيد الوعى، بل منها تبدأ التحولات الكبرى الإستراتيجية وتنبيهًا واكتشافًا وتوصيفًا وتخطيطًا وتنفيذًا، ومنها يكون القرار الحاسم إذا تردد المترددون، وبُبعد نظرها توائم بين الأداء الدعوى والحاجات الحضارية الشمولية، لما يحتاجه الأمر من إطلالة معرفية عريضة هى أحرى أن تكون الحائزة لها.

إنما يقودنا المحسن السبّاق المشاور المحاور الذاتى الاندفاع

من هنا نستطيع أن نتغنى حالمين متمنين محلقين فى آفاق الخيال الرمزى لنتصور صفة القيادى فى الرهط القائد.

* فالقيادى، الذى هو أحد هؤلاء المائة أو المائتين فى كل قطر، الذين يمثلون قلب العمل النابض وروحه الوثابة: هو مسلم أول أوصاف هويته التى تبيح له أن يزعم شيئًا ويأمر بآخر: أن يكون له فى الحياة الواقعية السائرة أثر وبصمة مشاركة.

فمما اكتشفه السلف أن المكانة القيادية نتيجة، لها مقدمة من عمل.

والناس أكيس من أن يـبرزوا رجـلًا ... حتى يروا عنده آثـار إحـسان

فالمنزلة القيادية لا تؤسسها رغبة مستشرف لها، إنما هى مجموعة إنجازات ترفع صاحبها.

* وقد تشفع وراثة أب، أو تلمذة لعالم، ولكنها تبقى مرجوحة وفى منزلة ثانية، والأصل العصامية والإبداع والتكوين الذاتى.

وهو مفهوم أحمد بن سهل للقضية، فعنده أن:

«الرجال ثلاثة: سابق، ولاحق، وماحق.

فالسابق: الذى سبق بفضله.

واللاحق: الذى لحق بأبيه فى شرفه.

والماحق: الذى محق شرف آبائه»[1].

فالأول فقط هو الذى يتعامل من موطن قوة، ويؤهل للصدارة، لأنه قد وضع ختمه الخاص على منتوجه. وأما الثانى فمكانته مجازية وتشفع له علاقته بذى شرف مضى. ونعوذ بالله من آخر لا يكتفى أن يكسل عن إضافة حتى يكون لما ورث هادما، وكذا النفس أحيانا إذا ارتكست، لا يرضيها إلا أن تبالغ.

* ويبدو لى عند التأمل أن اللاحق قد يرضى بسير الهوينى إذا كان المبدع المؤسس حيًّا، يستحيى أن يتقدم بين يديه، أو حتى أن يقارن أو يساوى، لكنه إن رأى الساحة تشغر برحيل أبيه أو أستاذه - بادر للتعويض والحفاظ على وتيرة الأداء العالى، يحركه الشعور بالمسئولية، وارتفاع الحرج عنه إن احتل المقدمة، وهو معنى ابتكره أرسطو يوم مات الإسكندر فقال:

«أيها الملك: لقد حرّكتنا بسكونك!»[2].

وهذه إشارة فى أوج العلو، فيها ما هو أكثر من المقابلة البلاغية.

بل قول يكشف عن معادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

فوراثة القادة لا تكون بنحيب، فذلك شأن النساء، ولا برثاء، فذلك شأن الشعراء. ولك بنفضة وعزائم وحركة تتم ما بدءوه، وتنشر ما أسسوه.

وهكذا تتحرك الحياة، فهى فى جزء منها: مجموعة مبادرات واستدراكات، يتم بها اللاحق ما بدأه السابق، ثم يزيد.

* وبسبب هذه المتابعة استوى علم القيادة وتراكمت أعرافها، فهو من علوم الخبرة التى

(1) المستطرف من كل فن مستظرف 1/ 205.
(2) المستطرف 2/ 377.

تنمو ويكتب كل جيل سطرًا فى وثيقتها، ويضيف كل قائد خطًّا فى صورتها ولونًا وظلاًّ ونورا، وتغدو التجربة محورًا لتطوير مفادها وتوسيع آفاقها والتعريف بأخلاقها.

فمن فصاحة العربى قوله لما سُئل: هل لك بالأمور؟

فقال:

إنـــــى لأنقـــــض منهـــــا المفتـــــول
وأبـــــــرم منهـــــــا المحلـــــــول
وأجيلهـــــا.... حتـــــى تجـــــول
ثـــم أنظـــر فيهـــا إلى مـــا .... تئـــول

وخلاصة ما يفتخر به: أنه لا يلقى قوله على عواهنه، ولا يدلى برأى قبل تعتيقه وتقليبه، فهو يحلل ويركب ثم يرقب مستقرَّات الأمور بعد تحريكها ليجزم بالرأى النهائى، وتلك هى أرفع الممارسات القيادية عند قوم يعقلون، وبهذه الطريقة تتم صناعة القرار الجيد، وتنكشف البصائر السياسية.

* لكن طرائق ذلك التشاور والمحاورة والمناظرة.

وهو قولهم:

إن اللبيـــبّ إذا تفـــرّق أمـــره فَتَـقَ الأمـور منـاظرًا ومـشاورا

فيعود مجتمعا.

حتى كاد التفرد أن يكون جهلا، وجزموا بتصنيفه عجزا.

فقد تساءلوا: مَن العاجز؟

فقيل: «المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه».

ذلك أن حصيلته لا تكون كتلة واحدة مجتمعة تقوده، بانتصابها أمامه، فتجذبه، وإنما أمره موزع، فهو مضطر أن يلتفت إلى الوراء ليضم أمره إلى بعضه من شتات، فيكون ذلك أول التأخر، بل أول الحين والوهن، كجفلة الظبى إذا التفت إلى ذئب يطادره: ترعبه، فيكون إبطاء، وارتجاف، وعما قريب يُفتَرس.

* وأكثر تبعًا من هذا المنفرد: مَن يختار صحبة الجاهل، فكأنه رضى أن يعاقب نفسه، كما قال أبو الأسود الدؤلى:

«إذا أردت أن تعذب عالما، فاقرن به جاهلا».

فإنه سيعكر عليه صفاء أوقاته، بالقول السخيف، والتصرف الأرعن، فيتبدد رأيه هو، إذ يبقى أكثر ساعاته آسفًا متوترا، ويفقد صوابه الذاتى بالتعطيل.

* لكن المستبد بالصواب: عاقل يحاور عاقلا، كالذى أنشدوا:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول

وصُنفت فى اللذات لأنها تؤدى إلى اكتشاف ما يليق من التصرف، فيكون ابتعاد عن خطأ، فيسعد بمكوثه الطويل مع ما هو صالح ومفيد.

وقيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

بل هو لا يحوج له أصلاً، بما يلقن صاحبه من تملص من مواطن العطب، وتحاشى أسباب المشاكل، وليس يحتاج العلاج صحيح، ولا يسأل الدفاع مستقيم لم يجنح، وإنما هو المريب يضطر الناس أن يقوموه.

ولذلك يغلب الرزأى المفرد الكتيبة الألفية الخشناء الطيشاء.

وقد قال أبو القاسم النهروندى:

وما ألف مطرود السنان مُسدّد يعارض يوم الروع رأيًا مسددا

وهذا مفهوم معرفى يشهد به التاريخ المدنى، فإن الحضارة إذا حرّرت الفكر، وأذكت الأدب، وأرست القانون، ومثلت الفن: فلنفسها مهدت، ولاستمرارها قدمت، وإنما هو دفاع معرفى يأتى أحمى من حركات سلاح لها ضريبة ثم سمعة سوء، فإن كان لابد من مواجهة: كان التفلت إلى جانب، فيكون الانقضاض المهيمن على قفا قوى متوغل خالف المفاد.

* ومن هنا كانت «محادثة الإخوان» هى الطريقة القديمة التى لا تبلى، والنمط العتيد الذى لا يتطرق إليه ملل، فكل فن مصطنع يقذف فى القلب سأما، ويحتاج صاحبه أن يعود إلى

الفطرة والسليقة السلسة، إلا الحوار العقلى: تظل النفس عطشى له، لأنه غير مفتعل، فتكون به السلوة، ولن يزهد به سمير.

وقد قال معاوية رضي الله عنه:

«شربتُ الأشربة.... حتى رجعت إلى الماء.

ولبست الثياب ...... حتى اخترت البياض.

فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم».

* وهذا تميز وتخصيص يمنع اختلاط المعانى، فليس هو كل أخ تتوق إليه النفوس، وإنما هو الكريم فقط، وذلك شرط.

وفى القصص: أن معاوية كلّم الأحنف فى شىء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال معاوية: بلّغنى عنك الثقة!! فأجاب الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروها.

* وهذا الاستدراك الحق من الأحنف فى وصف خُلق مهم من أخلاق الثقة: يفتح الباب لمستطرد أن يتوغل فى اكتشاف بقيتها، التى تأسست فى الابتداء وقبل كل شىء على نية جازمة بلزوم أوصاف التوثيق ومقصد فعل الخير وإضمار ما هو حسن، مما لا يحوج المتعامل مع الثقة إلى مطالبة وتنكير وموعظة، كالذى كان من الخليفة المتوكل ناصر السُنة رحمه الله .

قال عبد الأعلى بن حمّاد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى، قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور.

فقلت: يا أمير المؤمنين: بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: مَن لم يشكر الهمّة: لم يشكر النعمة.

وأنشدته:

لأشكرنّ لك معروفًا هممتَ به ... فإنّ همك بالمعروف معروفُ (1)

فالهمم جزء من محركات الحياة، بل لها زخم قوى فى هذا التحريك، ولولا نوايا المعروف وإلحاحها على الأحرار ودفعها لهم نحو دروب البذل لسكنت الحياة وخمدت ما بين نائل

(1) المستطرف 1/ 338.

متبطر ومغلوب حزين، إذ الحائز يرضى فيدخر، والآسف مكبوت هامد، ولكن نفضات الهمم تحمل الهُمام على استئناف وزيادة، أو شق حصار الألم، فيجذب الأمل.

وتلك هى ترجمة حكمة مَن قال:

أمس مثل، واليوم عمل، وغد... أمل.

* وهى بدورها معادلة من معادلات حركة الحياة لو تأملها الفاحص بروِيّة، فكما أن الأمل يغرى باستمرار المسيرة، فإن دروس الأمس تدفع وتضبط التقدم، إذ ليس أمس الفائت مجرد زمن انصرم وانتهى تأثيره، ولكنه مجموعة دروس تجريبية توجه وتهدى، وهو أيضًا مجموعة أساسات لأخلاقيات أرساها الهُمام يحرص على أن ترتفع جدراتها وتستمر ويخشى توقفها، كالذى أشار إليه إبراهيم بن المهدى عم المأمون حين ثار عليه ثم عفا عنه، فقال:

«والله ما عفا عنى المأمون تقرّبًا إلى الله تعالى، ولا صلة لقربى، ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى».

فهذا محرك من محركات الحياة آخر، يدعو صاحب السوق الرائج أن يوالى ترويجه، فالعفو صفة ثبتت للمأمون، وبها لهج الشعراء، وصارت له علامة، ويكون هو الخاسر لو قطع استمرارها، إذ يفقد الرصيد المتراكم، ثم الله أعلم من إبراهيم بدواخل الصدور: إن كان المأمون يتقرب ويتخلق معًا، أم يكتفى بصناعة العفو.

* لكن الأقرب فى مشاهدات الحياة أنه يجمعها معًا، كما قال الشاعر:

إذا رام التخلّق جاذبته ... خلائقه إلى الطبع القديم

وليس فى ظاهر ذلك شهادة للمعنى، لكن فى الباطن يكمن إيماء، فإنّ التخلق المتكلف لا يصمد أمام الخلق الأصلى الذى جُبلت عليه نفس المتصنع، لأنه على الضد من ذلك، وجذره أعمق وأقوى رسوخًا، إنما يستعين المتخلقون بالتعبّد والتأله، فلربما يتيسر لهم ذلك بالإعانة والتوفيق.

ويؤيد هذا المعنى ما يقوله فقهاء النفس من أن الرادع ذاتى داخلى ينبع من أعماق الشخص، وليس ينفع حث خارجى.

وروى أن أبا العتاهية مَرّ بدكان ورّاق، **وإذا بكتابٍ فيه:**

لا ترجـع الأنفسُ عـن غيّهـا ـــ مـا لم يكـن منهـا لهـا زاجـرُ

فقال: لمن هذا البيت؟

فقيل: لأبى نؤاس، قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حُب الجمال وعشق الملاح.

فقال: وددت أنه لى بنصف شعرى.

وهذا البيت يكشف عن حقيقة تربوية مهمة، فإن الأخلاق والتقوى لا تقتحم على صاحبها من خارج فى عملية اختراق، سريعة إذا احتاج مشرفٌ على ذنب لها، وإنما هى نتاج بطىء يتسرب فى القلب ذرة بعد ذرة فى عملية تربوية طويلة يدفع المعلم أجزاءها إلى تلميذه تباعا، حتى إذا وصلت كثافتها إلى درجة ما: فإنه يؤذن لها آنذاك بالتأثير وردع صاحبها، وتقوم فى قلبه كواعظ داخلى تحركه ضد المنكر وكل شىء أعوج بحساسية بالغة، وغاية التربية أن توصل المرء إلى هذه الحالة الرقابية الذاتية، ثم تدعه بعد ذلك يقود نفسه مميزًا الصواب، وهذا ملحظ لابد لكل مربٍّ أن يدركه، فإن الموعوظ إذا بقى عالة على واعظه كل دهره فيكاد الواعظ أن يكون لم يفعل شيئًا، إنما هى الدفعة وإعانة المبتدى، ثم المتوغل أعرف بنفسه.

ويتمم هذه الملاحظات ما قد قيل من أن:

«جرعة النصيحة مُرة، لا يقبلها إلا أولو العزم».

فهى ليست مرفوضة من الجميع، إنما ينتفع بها أناس هم فوق المستوى العادى، قد روضوا أنفسهم، وأعلوا هممهم، فانبغى لهم تصميم وإصرار على تناوش الأمر الرفيع، يبذلون له الإذعان لما تكرهه نفوس المستكبرين.

إنما تكتمل طريقتنا إذا أحببنا عامة الناس وكسبنا ولاءهم

* ويظل هذا التمرين على الإذعان يتحكم ويسيطر على حركات النبلاء حتى يحولهم إلى حالة فهم مغزى النبل ومعناه وحدوده وطرائقه، ويتركهم على أهم خُلق من فروع النُبل، عنوانه: أن النبيل يرعى مَن دونه، ويكفله، ويربيه، ويصوبه، ويمنحه فرصة للاقتباس والتشبّه، ويظل يّطرد هذا الأسلوب عنده حتى لا يبقى عنده حساسية تنفره من غافل يقارف

وفاسق سادر، بل يراهم ضحايا لتأثيرات سوء، ويجعل واجبه الانتشال، ويفهم أنه أمام معادلة أخرى من معادلات حركة الحياة، عنوانها هذه المرة: التأثير فى الحياة عبر إضافة جهد الفسقة فى ساعاتهم الخيرية إلى جهد الصالحين، عن طريق قيادة الطائفتين، بقول الولاء من قوم تعييهم الطاعة.

ولست أرى ذلك إلا مذهب معروف الكرخى الزاهد، **فقد قال أحد أصحابه:**

«كان معروف قاعدًا يومًا على دجلة ببغداد، فمرَ بنا صبيان فى زورق يضربون بالملاهى، ويشربون، **فقال له أصحابه:** أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع الله عليهم. فرفع يديه إلى السماء **وقال:**

إلهى وسيدى: كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة.

فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم!!

فقال: إذا فرّحهم فى الآخرة: تاب عليهم فى الدنيا» [1].

فأصل أمرنا الدعوى وشعورنا قائم على محبة الناس والعطف على العصاة والفساق ومحاولة انتشالهم مما هم فيه، لا الشماتة بهم، ولا تركهم لشيطانهم.

ثم قد قادتنا هذه الملاحظة بالتجربة الدعوية إلى نظر تخطيطى دقيق، فهؤلاء أهل الطرب والمجون تكمن فيهم قابليات لومضات إيجابية، فلماذا أدعها تفلت منى ولا أحوزها بجميل تعاملى معهم وتوسعة صدرى لهم؟

❋ وأنا مازلت ألحظ فى أوساط الدعاة توترًا حادًّا من مناظر اللهو والغناء والسفور والاختلاط، واهتمامًا مضاعفا، إذ الأمر أبسط وأهون، فبدلاً من التوتر واستهلاك النفس أسفا: يمكن اتخاذ نظرية الولاء أصلاً لحل المعضلة، وتحصيل خير هؤلاء بالحسنى، وتوظيف شظايا خيرهم ضمن خطة الحل الإسلامى، فإنه سيوجد حلا تلقائيًا لمشكلتهم ودواءً من أزهار أرضهم نفسها، ويكفى الله المؤمنين التوتر والقتال ببديل من العلاقة السلمية الواقعية المستثمرة لإحسان لا يخلو منه طروب، وبإعانة من أصواتهم وأموالهم وجهودهم أحقق تبدلاً

(1) المستطرف 1/ 215.

obeikandl.com

فى مسيرة يوفر جوًّا يصلحهم هم أنفسهم قبل غيرهم ويوفر لهم محيطًا نظيفًا يتناوشون فيه التوبة من قريب.

لكن كم داعية يُدرك هذه الفذلكة التخطيطية ويكبح شهوة نفسه فى التعامل الغليظ مع الفساق؟

ونحن نزعم الجماعية، ولكن ما تزال فينا مفاهيم الفرديين!

ونزعم التخطيط، ثم نهدر طاقة فى المجتمع لعلها ضعف طاقتنا....!

إن هذه الرحمة إذا قصرها الأدب الزهدى على طبيعة أخلاقية فحسب، فإن فقه الدعوة يعْديها إلى أبعد من ذلك، ويجعلها قاعدة تخطيطية تمنح العمل الإسلامى تفوقًا إستراتيجيًّا فى الصراع، وليس من ثمن لها غير تعويد الدعاة أنفسهم كظم الغيظ والعفو عن الناس وبذل الحب للمسىء كبذله للمحسن. وسبب هذه القابلية على تحويل الطبيعة الأخلاقية إلى حقائق تخطيطية يكمن فى الصنعة القيادية التى حبانا الله بها، واستطاعتنا إدارة جانب من الحياة بها، وشدّ شطر المجتمع إلينا واقتفائهم لأنماطنا وأعمالنا، ودفعهم إلى عمل الخير وتحقيق المصالح الإسلامية عن طريق الاقتداء بنا، والتقليد لنا، والمحاكاة، عبر الفن التربوى الإملائى الذى نمهر فيه، حتى لو كان يلفهم فسوق.

* ووقفة تأملية أمام مشهد من مشاهد الحياة تكشف لنا بالتحليل شيئًا من هذه المعانى، وأن الحياة صراع قادة وأتباع لهم مع قادة وأتباع.

قال عبد الملك بن عمير فيما روى عنه الثورى:

«رأيت رأس الحسين رضي الله عنه بين يدى ابن زياد فى قصر الكوفة.

ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار.

ثم رأيت رأس المختار بين يدى عبد الملك.

قال سفيان: فقلت له: كم كان بين أول الرءوس وآخرها؟

قال: اثنتا عشرة سنة»[1].

---

(1) المستطرف 2/ 54.

obeikandl.com

فتعال وحلّل: يتضح لك أن اللاحق استدرك وجمع أتباعًا فزاحم فتمكن وأزاح. فهذا المشهد الحيوى ملىء بالحركة، وينطق بما لم يقله هذا المراقب من صنعة التنافس المبنية على الصنعة القيادية التربوية.

صاحب النقص فى التحليل سترهبه الأقدار الربانية التى جعلت التحولات تترى سريعة فى هذا المشهد، وأبدته مفعمًا بتدحرج الرءوس، كأنه فيلم سينمائى لألفريد هيتشكوك، فلربما يهاب ويظن أنا ندعوه ليعلو ليتدحرج رأسه، وليس كذلك الأمر، بل هناك مَن يسيطر ويستمر له الأمر دهرًا طويلا، وإنما جىء بالمشهد لازدحامه بالدلائل، وليس هو النمط الغالب، ولئن نقصت أصحاب تلك الممارسة فنون تربوية وتنظيمية وتخطيطية يديمون بها تفوقهم، فسهلت إزحتهم، فإن للمحتاط النبه الحازم أن يحمى أمره بهذه الفنون، ونعيش اليوم زمن نكرات أداموا بالاحتياط أزمانهم عشرات السنين، وهم على باطل، وصاحب الحق أحرى أن يطيل أيامه باحتياط مثله.

* والذى يؤكد نفاذ هذه الصنعة القيادية التى تسوق الناس إلى مثل ديدن القائد: أربعة مشاهد حيوية أخرى من مشاهد الخير والشر، يعرفها الكثير ولا يتفطن لمغزاها ومعناها وفقهها إلا القليل.

«روى أصحاب التاريخ فى كتبهم قالوا:

* كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجّاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَن قُتل البارحة، ومَن صُلب ومن جُلد، ومن قطع، وما أشبه ذلك.

* وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع، وشق الأنهار وغرس الأشجار.

* ولما ولى سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب طعام ونكاح: كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة، ويتغالون فى المناكح والسرارى، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك.

* ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر»[1].

(1) المستطرف 1/ 161.

وبإمكان الجهد الدعوى إحياء المشهدين الثانى والرابع معًا، إذ باجتماعهما تنتظم الحياة كأجمل ما تكون، ويكون عمران بقيادة الإيمان.

إن جميع هذه المشاهد إنما هى استجابات فى اللاشعور من السواد الأعظم المفطور على تقليد المسموع والمنظور، يتابعون بها أنماط القادة، ولئن ينحت افتقاد السلطة من المكنة التأثيرية القيادية الدعوية، فإن تنوع الفن التخطيطى وتكامل الأداء الفكرى الوعظى الإعلامى المؤسسى بإمكانهما الجبر والتعويض والاستدراك وتوفير نصف هذه المكنة المبتغاة، والنصف يعتبر واحدًا كاملاً فى القياس الشرعى النص الجهادى، ثم الواحد يكون أكثر فى القياس الإيمانى التباركى، فيغدو الحساب التنافسى واردًا جدًّا بذلك، ويصح ترشيح النفس.

لأهل النقص من عامة الناس وظائف خططية نحتاجها

والمستقبل لأصحابه، يمشى مع من يبادر إلى إمساك زمامه.

أما المتردد المستقل لعَدد إخوانه، المستصغر لحجم رهطه، إذا هاب وتخوف ورأى فى هذا الحث تجاوزًا لمفاد الحساب والأرقام، بما له من اقتباس جامد من علوم الإدارة الحديثة بلا وعى ونظرات نسبية واستدراكات إيمانية: فإنما نرد عليه برد إيمانى حُر ندعوه به إلى أن يتجاوز الشكليات الإحصائية إلى رؤية فلسفة الرياضيات والمنطق الجبرى، ليدرك معادلات حركات الحياة التى أدركها قيصر وكسرى وفهمها جيل المسلمين الأول، ثم عسُرت على داعية مستعجل هام غرامًا بالحق والإيمان، فاستبد به التسامى العاطفى فتركه بمعزل عن المفاد العقلى، ومنطق استجلاب النصر منه قريب يكمن فى معادلة «تحصيل الولاء» مادامت بؤرة أهل الطاعة قد استحكمت وتركزت.

* **فمن خبر الحكماء أن رجلا قال لكسرى:** ليس فى الناس كلهم خير.

قال كسرى: هذا صحيح.

فقال الرجل: ولابد منهم!

قال كسرى: صدقت.

فقال الرجل: فألبسهم على قدر ذلك..!! (1).

(1) البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى 7/ 115.

وهذا القول الصحيح البسيط إنما هو نظرية كاملة للحكم، وجماع قواعد السياسة الناجحة، ومعادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

ففى الناس أصحاب نقص متعدد الوجوه، بل أسافل وسخفاء، لكن سلسلة المنافع لا تكتمل بدونهم، بل تقوم بهم المصالح الدنيوية والدينية، ولذلك يكون واجب الرؤساء أن يتعاملوا معهم على قدر قيمتهم، بتمكين الشجاع، وتقديم الكريم، وتفريغ العالم، ثم ترك العامة يسدون الثغرات، يتوزعون على المهن والصناعات والفنون، لتكتمل الحياة. وكما راعى أكثر الملوك والخلفاء ذلك فى القديم: تراعى النظم الحديثة هذه السياسة المعتمدة على تلك الحقيقة، فتركت الناس واختياراتهم، وأذنوا لهم بتأسيس نقاباتهم ونواديهم وجميعاتهم ومدارسهم، حتى حصل إسراف فى ذلك عبر تقنين حماية السوء وردىء التصرف.

* والعمل الدعوى الناجح الذى يبغى دوران دولاب العمل الإسلامى إنما ينطق من نفس هذه الرؤية الفطرية والتعليلات الفلسفية، وينبغى أن ندرك أن ليس فى كل الدعاة مقدرة وافرة، وإنما هم درجات، ولكن لابد منهم حتى الضعيف، فتلبسهم الخطة على قدر ما فيهم، بتنويع طرق العمل والبذل الدعوى، وتكثير اللجان والجمعيات والنوادى والمؤسسات والمثابات والمنطلقات، لتوافق كل هوى فى أفراد الجماعة ومناصريها، وعن طريق الاختيار نؤسس شغل خير لكل أحد، وتلك صفة بهية فى التربية المنهجية يجدر بنا أن نعرفها.

* ثم تكتمل هذه الطريقة فى السيطرة على الحياة بأن نقترب من العامة الذين لايليق أن تحويهم صفوف الدعاة، فنجمع جزئيات الخيرالصغيرة المتوزعة فيهم على طريقة تركيب الشظايا تلك، مهما كانوا فُساقا فى القياس الشرعى إذا لم يكونوا أهل دناءة وإسفاف، ومهما كانوا أصحاب نقص فطرى وقلة ذكاء وضعف فى القدرات، فإنهم لم يغلقوا على عى وعجز يهبط بهم إلى درجة الصفر فى العطاء والنفع والمقدرة، ولذلك نطلب ولاءهم فقط على وفق نظرية صناعة الحياة، ونقطف منهم ثمرات ليست هى من الصنف الأول المخصص للتصدير، وإنما من الصنف الثانى والثالث المخصص للاستهلاك المحلى فقط، وإنما هى ثمرات يانعة أيضًا بإذن الله، وفيها لذة ورواء وطب وشفاء، وكما أدار كسرى ثم جمهرة قادة الدول دولاب الحياة المدنية بالناقصين حين تمّ التعامل مع الناس حسب مقاديرهم، كل

واحد فى منزلته، فإن الخطة الدعوية تدير دولاب العمل الدعوى والتأثير الإسلامى بهم، وتجعل السيطرة عليهم وتحصيل الولاء منهم وتسييره فى الطريق الصحيح والتحكم به رقمًا فى معادلة السيطرة الإسلامية على الحياة.

* وهذه الملاحظة الحيوية لاحظها على بن أبى طالب رضي الله عنه **فقال:**

«الغوغاء إذا اجتمعوا: ضروا، وإذا افترقوا نفعوا.

فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟

قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه.

وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق» [(1)].

وخُططنا لا تسمح للغوغاء أن يجتمعوا، ليقلق على، وإنما هى تجمع ما يحسنون.

قال الجاحظ يومًا لكهل فاضل قد ابيض رأسه: لقد عجّل عليك الشيب! فقال: وكيف لا يعجل على وأنا محتاج إلى من لو نفذ فيه حكمى لسرحته مع النعاج، أو لفظته مع الدجاج؟ [(2)].

فهذه ظاهرة حيوية أيضًا: أن هؤلاء العامة والغوغاء فيهم أصحاب مال، وأصحاب مراكز وسطوة، فيحتاجهم مثل هذا النبيل المسكين الذى لقننا سبب بياض رءوسنا وكنا عن ذلك غافلين، لكنه نسى إذ هو يبث لوعته أن النعاج والأبقار تمنح حليبا، ومن تجميع كئوس من هذا الحليب قامت شركة نستلة العابرة للقارات وحصل لها عنفوان وأثر سياسى، ونسى أن عمداء فى الجيوش يقفون فى الطوابير ساعات ليأتى دورهم لاستلام طبقة من بيض هذا الدجاج فى بلاد يشاء المستبد أن يذل الناس ويلهى خصومه بالحاجات المعاشية..!

* ومرة أخرى يتوهم المستعجلون أن هذه القابلية فى التحرك بالعوام والمستضعفين يستوى فيها الحاكم الظالم والدعاة، بل يظنون أنه أقدر وأمكن، لأنه فى مكان السلطة.

(1) المستطرف 1/ 232.
(2) البصائر والذخائر 4/ 70.

obeikandl.com

وهذا قياس مع الفارق، إذ نحن الأقدر بحمد الله، لأن اندفاعنا ذاتى، وتجذبنا منازل الجنان.

ففى القصص الرمزية: أن كلبًا عدا خلف غزال، فقال الغزال: إنك لا تلحقين. قال: لِمَ؟ قال: لأنى أعدو لنفسى، وأنت تعدو لصاحبك!

ففى كل بلد كتب الله عليه المحنة هناك زبانية وجلاوزة ومن يعدو خلف الملائكة، لكنهم لا يستطيعون غير تمزيق أطراف أرديتها، وتبقى محلقة بأجنحتها، لأنها مستأجرة لا تعدو قدرها ومنزلتها الواطئة، ولا تحركها ذاتية، بل تبعية يأنف منها الأصيل، ويتعفف عنها الشريف.

العمل الجماعى يتيح تراكم تأثيرات الأجيال

بل أبعد من هذا: أن ظاهرة الأجيال القيادية تعمل لصالحنا، فيتراكم الخير عندنا جيلا بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، وفى دورة الحياة الواحدة التى تجمع الشيخ والكهل والشاب فى آن واحد: يتكامل أداء الجمهرة كلها، وتظل كلمات وإنجازات وسِير الذين ماتوا تؤثر فى الأحياء وإلى أجيال عديدة، وما زلنا فى الزمن المتأخر تضىء لنا بطولات وعلوم وحكمة السلف، فتجتمع من كل ذلك ذخيرة قيادية عظيمة الكتلة ترجح الميزان لصالحنا، إذ المستأجَر الحى تائه فى ظلام ظلم سيده، والخاسر الميت مطوى الذكر منسى.

وهذا الجانب من نظرية الأجيال القيادية قد اكتشفه أحد نبلاء السلف فقال:

«معادن البهاء لا يقطع بين متصلها تفاوت الأعمار، ولا يُعفِّى آثارها بِلى الأبدان»[1].

وما كنت أدرى انتباه الأولين لها حين دونتها فى المسار، فالعلم والوعى والأخلاق، التى يجمعها اصطلاح «معادن البهاء» إنما هى سَنَد متصل تمثله سلسلة أهل الخير على اختلاف أعمارهم، الشاب منهم يكمل الكهل ثم الشيخ، بل حتى الذى يمضى إلى جوار ربه إنما هو غائب الجسد حاضر بسيرته ومفاد تجربته ونظراته النقدية ووصاياه الوعظية واختياراته الفقهية، وتتكون مدرسة لها طبعاتها الحيوية وإن اختلفت أسنان ممثليها وغابت أشخاص من

(1) البصائر 8/ 39.

سَلف من مؤسسيها وموسعيها ومروجيها وناقليها، وتجتمع من أداء الأجيال المتعاقبة كتلة تأثيرية لها وقعها المعنوى وحسمها الفاصل، أتاح بروزها العمل الجماعى المستمر الذى يدفع سيدًا إلى الساحة كلما مضى سيد، وتلك منحة لا يعرفها فردى، وهو عن إدراكها بعيد.

مداد أسود.. وخضاب أحمر.. يرويان وردتنا البيضاء

لكنا فى ذلك لسنا قدرية نعوّل على البهاء الذى يهبه الله لجماعة المؤمنين ثم ننزوى جانبا، وإنما ندرك الأسباب والوسائل والأساليب، وأن مِنَح الوعى والبصيرة والحكمة التى هى ترجمة البهاء إنما تخدم العامل لا القاعد.

* وندرك أن أول ذلك: الخطو فى درب العلم، وقد قيل: «مَن خَدَم المحابر: خدمته المنابر» أى أنه درب أوله حبر وأقلام وتسطير أوراق، لكن آخره بياض واستواء وسيطرة ولهج تصدع به المنابر.

* ثم ندرك أن العلم البارد كاسد، حتى نساء المؤمنين يدركن ذلك، فتطفق إحداهن تحرض على جهاد يحمى العلم ويثبته فى أرض الواقع، وتبشّر أن عما قريب يكون «قد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق» «ألا وإن خضاب النساء الحنّاء، وخضاب الرجال الدماء».

لكنه الجهاد الواعى، عبر نمط الأداء الحضارى، لا الارتجالى المرسَل الذى لا يضبطه تخطيط وتدرج وهدف، وإنما هو مأسور إلى قياسات الواقع والظرف والمرحلة.

وردتنا البيضاء فى الوعاء الأصفر

ولكى تكون الخطوات الجهادية واعية: يلزم أن يخدمها مال وافر يفى بأثمان الأداء الحضارى الغالى، وكل تقديم مكشوف لا تسنده خزانة عامرة يصيبه التعثر، ويكره التأخر، والأعمال فى المجتمعات المعقدة المشحونة بالتنافس لا تحتمل ذلك، بل تريد موافاة فى الموعد المضبوط، واستعدادا يسبق الفرصة وينتظرها، والوصول المتأخر صورة من صور الغياب، ومرارة طعم هذه الحقيقة لا تبدل هذا الوصف الصحيح.

* والأمر فى الأداء الدعوى فى هذا المجال يماثل الأمر فى أداء الدولة، فمن المعادلات فى

حركة الحياة ما اكتشفه جعفر بن يحيى البرمكى منذ القديم فى ارتباط السياسة والوجود السلطانى بالتكامل المدنى والمال، ثم ارتباط المال بالعدل، وهو قوله:

«الخراج عماد الملوك، وما استعزوا بمثل العدل، وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور فى خراب البلاد - تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور»، «وإذا ضعف المزارعون: عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها، فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان» (1).

وهذا من رفيع الكلام، ويشكل نظرية فى الفقه السياسى يلزم أن يستعيرها الفقه الدعوى، فجنود الدعوة إنما يحركهم المال كما يلهب عواطفهم الإيمان ويؤكد عزائمهم الفكر، وهذا المثلث كامل، وإذا رفعت منه ضلعًا يصير الباقى منفتحًا مكشوفًا لا يستوعب شيئًا ولا يحوى رصيدًا ولا يؤوى أهلاً.

* وقد قيل:

إنـما قــوة الظهــور النقــودُ ... وبهــا يكمــل الفتــى ويســودُ
كم كـريم أزرى بـه الـدهر يومـا ... ولـئيم تــسعى إليــه الوفــودُ

* وقيل:

فقـــوة الـــعين بإنـــسانها ... وقـــوة الإنـــسان بـــالعَين

والعين الثانية هنا: الذهب.

فهذا حديث معادلات حيوية، وما هو بحديث عواطف.

إنها معادلة تتحدث عن قوة الظهور، وقوة الإنسان.

وهل نمط الأداء الدعوى غير قوة الظهور وقوة الداعية؟

نعم، لسنا أهل تفسير أحادى، ولا نغفل عن آثار الإيمان ولمعات الفكر، ولكن لا نغفل أيضًا عن لمعات الذهب!

(1) المستطرف 1/ 168.

والسبب: أنك تحتاج المؤسسات، والتفرغ، والدعاية، والكفالة، والشراء، ومفتاح كل ذلك: الثراء.

والسبب فوق ذلك أيضًا: أنك مضطر لأن تخاطب الناس على مقدار عقولهم، وبلغتهم التى يفهمونها، فى الأول، لينصتوا لك، لتبدل موازينهم ولغتهم فى الثانى، كما أوصى بعض الحكماء ولده فقال:

«يابُنى، عليك بطلب العلم وجمع المال، فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال».

* وأعراف هؤلاء الناس وموازينهم عجيبة غريبة، فقد قيل: إنه ما مِنُ خلّة هى للغنى مدح إلا وهى فى لغتهم واعتبارهم للفقير عيب.

فإن كان شجاعًا... سُمى أهوجا.

وإن كان حليمًا .... سُمى ضعيفًا.

وإن كان وقورا ..... سُمى بليدًا.

وإن كان لسِنًا .... سُمى مِهذارا.

وهذا وضع مأساوى مرهق، لطالما حاصر الدعاة، ولا يكتمل الأداء التربوى المنهجى ما لم يتمم ويردف بمال نرفع به الداعية المتربى عن حد الفقر ونجعله طليقًا إذا أراد التجول الإيجابى، ليصح نطقه وتفصح لغته من بعد عُجمة الحرمان ومكوث طويل فى قفص الاتهام، وما أظلم الغوغائى حين يكون قاضيا.

إن تحرير الداعية من رهق الحاجة والقروض: إنما هو جزء من منهجية التربية الدعوية، من أجل أن يصدح ويغرّد، فإنه مكبوت، وما هو بأخرس.

* وكان فى القديم شاعر، كأنه داعية، أذهلته إيماءات الدائنين، وإذ بلسانه يصبح معقولاً، ويقول:

لقد كان القريض سمير قلبى ... فألهتنى القروض عن القريضِ

فقريض الإيمان ومتن الفكر: سمير قلب كل داعية.

وحكاية واقع العالم الإسلامى وتحليل الأحداث صنعة كل داعية.

ورواية التجريب وفقه الدعوة والمفاد الحضارى أناشيد كل داعية.

لكن: كم من داعية أسكته الفقر وألهته رهبة القروض؟

فذلك هو الذى جعل تحرير الداعية من رهق طلب المال واجبًا موضوعًا على عاتق منهجية التربية الدعوية لا يسعها التنصل منه.

لأن الإنسان فى ذروة الشرف.

أشرف ما فيه: العقل.

نقطة فى الخيال ... ملحمة فى المآل

وبذلك تكون معادلة تحرير العقل أهم معادلة فى حركة الحياة.

والمفروض أن تدرك منهجية التربية الدعوية ذلك، بجلاء، إذ إن هذا التحرير هو الخطوة الأولى فى الإيمان، لمكانة الفطرة الغالبة، وكما يستعبد الطغاة العقول فيحرمونها من الإيمان: يستعبد الفقر العقل المؤمن، فيشتته، وقد كاد الفقر يكون كفرا بمثل هذا التشتيت.

إن الخالق قد حبا الإنسان بعقل عجيب، له مقدرة فائقة على التخيل، وإنزال ذلك على الواقع، ومقدرة على القياس، والترتيب المنطقى، والتعبير الفنى، والاحتكام إلى المعايير، والتجانس مع سلوكيات مخلوقات الله الأخرى.

* ولكى ندرك أهمية العقل وطاقاته الجبارة: يلزم أن نراه فى الحالات المطلقة من عمله ونشاطه، قبل تجمله بالإيمان، لأننا إذا أحسسنا حقًا ببراعة أدائه المطلق: سهل إدراك جمال أدائه الإيمانى عندما يؤمن ويتخلص من المعكرات.

وفى هذا السياق حقائق مبكرة، منذ الزمن الحضارى القديم، وقد أعجبتنى قطعة من العمل العقلى المطلق فى الفلسفة الرياضية والمنطق الهندسى نقلها أبو حيان التوحيدى عن قسطا بن لوقا عن علماء اليونان فيما يبدو، وهذه المقطوعة التأملية ترينا بوضوح عميق قابلية التأمل والخيال التى أودعها الله فى العقل، ولذلك هى تحرضنا على أن نصونه ونحرره ونمهد السبل أمام سياحاته، وأن نجعل ذلك أول منهجية التربية الدعوية، إذ فى ذلك تمهيد للإيمان

أن يدخل العقل، ثم تدخله اللمسة العاطفية القلب، ومن يجعل ذلك أول المنهجية واعيا: يجعله آخر المنهجية أيضًا، بمثل ذاك الوعى.

* يقول قسطا بن لوقا:

«الخط هو مقدار ذو نعت واحد، وهو الطول، بلا عرض ولا عمق، وهو يدرك على الانفراد بالعقل والوهم، لا بالحسّ. وأما وجوده بالحس: فإنه فى البسيط [1]، إذ هو نهايته، فإن البسيط إذا أُلقى منه عَرضه: بقى طوله فقط، وذلك هو الخط. ونهاية الخط نقطتان: فالنقطة هى شيء لا بُعد له، أعنى لا طول ولا عرض ولا عمق، وهى موجودة على الانفراد بالعقل والوهم لا بالحسّ، وأما وجودها بالحس فهو فى الخط» [2].

* ولو تأملت مليًّا: لأدركت أن هذا الوصف الواضح الذى تظنه سهلا إنما هو إعجاز إنسانى رفيع المستوى ينبئ عن ذكاء ومُكنة تصورية قوية، بمثلها تتحرك الحياة، وتنفجر الطاقات الكامنة، ولا تستطيع أبدًا أن تجرد هذا المقطع فى التأمل العقلى العالى العتيق من ارتباطه بسياجات آينشتاين الذهنية فى تمثُّل النسبية، أو تجربة عملية لها أجريت فى استقبال ضوء كونى بعيد أثبتت انحناء مسار الضوء، بل هو جذر من جذور فيزياء الكم، وللمنطق الذى فيه أثر فى صياغة عقل ماكس بلانك. ثم لا نستطيع أن نفصله عما أودع المهندسون فى أعماق الكمبيوتر التحتية من قابليات تجسيمية وأقيسة تبادلية التأثير، فإن هذه النهايات تستند كليًّا إلى جذر تلك البدايات فى تخيل الخط والنقطة، ولولا ذاك ما كان هذا، ولولا إدراك وضع البسيط ما كان إدراك المجسم، والعلم كتلة نامية، وشجرة أصلها بذرة، ثم يأتى دارون يستعصى عليه أن يفهم دلالة هذا الإعجاز، وعبقرية العقل الإنسانى، فاستغلق عليه فهم استثناء آدم، وذهل عن إدراك أبعاد معانى الفلسفة الرياضية هذه، وعصفها العاصف إذا عصفت، فألزمت بالمنطق من فى عرصة الحياة أن يقدّم لها الولاء، فباتت تسيطر على المكان والزمان ومن فيهما وما فيهما مما يدرك ويرى ويحسّ، كله جميعًا، بلا استثناء، وهو الموفق فقط يفقه قيمة العقل الإنسانى الذى حبانا الله به دون سائر المخلوقات، وهو المؤمن فقط ينتبه إلى أن حركة الحياة أساسها عقل ونفس.

---

(1) يعنى: الهندسة المستوية لا المجسمة.

(2) البصائر والذخائر 9/ 93.

❊ أما لماذا كفر ابن لوقا هذا، ولماذا كفر آينشتاين؟ فذلك لخبر آخر من أخبار الإيمان، والإيمان ليس أحادى التفسير، بل تحكمه حقائق شتى، مثل الشهوة والشبهة، وإغراء الشيطان، وما يعاكس ذلك من التوفيق الربانى، وأسرار حكمة القدر. وليس هذا مجال شرحها، إنما أردنا التذكير بعنفوان الأداء العقلى، لندرك تأثيراته إذا ازدان بالإيمان، لنحرص على رعايته وجعله شغل المنهجية التربوية إذا أرادت التجانس مع حقائق الكون والخَلق.

❊ ومَن يتم فهم هذه المعادلات الحيوية فى وصف النقطة والخيال العلمى، وأثر المال، ومعادن البهاء المترابطة، وخضاب الرجال، واحتياج الخطط التفوقية للعامة السُفلية، ومنطق الغزال، وختمات عمر، ومصانع الوليد، وتبدلات فى قصر الكوفة، والوعى الكرخى، وذاتية الوازع النفسى، وسوق الأخلاق، وهمم المعروف، وجذبات الأمل، ومحادثة الإخوان، والسكون المحرِّك، واستدراك اللاحق، والشرارة القيادية القادحة، وجمع نفحات الله التى تنعش كل فرد من الناس فى أوقات متباينة، وضمّ أخلاق الناس المتفرقة المتوزعة فيهم إلى بعضها، وتراكم ألف سبب لتحويل السائب إلى داعية: فقد أُذن له أن يفهم طرائق حركة الحياة والأصل الشرعى والجذر الفلسفى والمنبع الفيزياوى لمنهجية التربية الدعوية.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

خاتمة

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة

* **أما بعد** .. فأنا أعرف أن الخيال سهل، وأن التفكير المجانى لا حدود له، وقد أطلقت لنفسى العنان فأوجبت أشياء كثيرة وزعمت صورة مثالية لمنهجية التربية الدعوية، وما ذاك إلا لأنى لا أجد أحدًا يطالبنى بتفنيد ويحصى على ويحاسب، لكن اللجان التربوية مسكينة، فإنها مكلفة بإنزال هذه التمنيات العِراض على الواقع، وتوجيه يوميات تحرك الدعاة وفق ما تقتضيه، وهذا هو الموطن الصعب، وهناك البطولة الحقيقية.

* لكن إذا أنا برجال تربية شفيق: أحب أن أسأل: أما كانت الخيالات والرؤى الحالمة هى مصدر التخطيط الناجح دائما؟

إذن ... لا تزهد بالذى أعرضه وأقترح، فلربما وجدت حلول معضلات التربية بين هذه الإشارات الطموحة.

ومن هنا أفهم أن الطريق العملى للاستفادة من هذا الحشد من الملاحظات والتحليلات أن يقرأ الداعية التربوى الكتاب ثانية مترويا، ويستخرج منه المطالب والاقتراحات والمفردات التربوية ويجعلها فى قائمة يقرنها بمماثلات يستخرجها من المسار وصناعة الحياة وأصول الإفتاء والاجتهاد ورسائل العين، ثم يلحق بذلك مقترحات أوردها غيرى فى كتبهم، ويجعل من جميع ما هنالك مثل دستور للعمل التربوى فى صياغة تقعيدية تخطيطية، ثم يدعو إخوانا له إلى مؤتمر لتقويم ذلك وتحديد مدى إمكانية الاستفادة مما ورد، فما يقر يرفع إلى مؤتمر ذى مستوى أعلى، حتى يصل مستوى أهل الاختيار والقرار، فيمرَّر الصواب ويوصى به، ويكون استبعاد الخطأ وما فيه إرهاق. وأما ما يكون من عمل غير تربوى يؤدى إلى تأثير تربوى، مثل فكرة الصناعة، فإن تقريرها يكون أبعد من محيط التربويين، ولها أولياء يتولونها.

* ويقع بيتى على طريق عام موصل إلى مركز المدينة، لذلك أصبحت أشاهد يوميا منظر عشرات ألوف من الناس أو مائة ألف أو يزيدون يسعون من بيوتهم صباحًا إلى وظائفهم فى دواوين الوزارات والشركات والمعامل، وعشرات ألوف أخرى من طلاب الجامعات، ثم أراهم ثانية كل مساء يروحون إلى بيوتهم تنقلهم الحافلات فى ازدحام مثير للانتباه، وجزما أن هذا المنظر يتكرر فى الشوارع الرئيسة الأخرى المؤدية إلى مركز المدينة.

فأقول: حقًّا إن مهمة الدعوة صعبة، فكم من داعية عندنا بين هذا العدد المليونى؟ عددنا قليل، والناس كثير، ولذلك يجب على تخطيطنا أن يراعى هذه الحقيقة، فلا يتورط فى استعجال، إذ يحتاج هؤلاء إلى تربية وفكر وموازين وأخلاق ليكونوا شعبا صالحًا لدولة إسلامية نحلم بها، ولا يكفى أن تكون قيادات الدولة مسلمة وسواد الشعب الأعظم فى تخلف عن إدراك مسئوليته الإسنادية التكاملية مع الدولة، كما يحدث فى السودان اليوم. بل حتى الجانب الأخلاقى يتراجع فى لناس فى كل الأقطار، بتأثير القنوات الفضاضية والشعوب الأخرى النصرانية والوثنية، وأصبح الميزان المصلحى هو مذهب الناس.

وأمر كهذا يدفعنا إلى أن نطور خُطتنا ومفاهيمنا فى العمل بما يناسب هذه الحقائق والظواهر، بحيث نجعل تحصيل ولاء الناس هو الركن الأكبر المعتمد فى العمل الإسلامى، وليس تنظيمهم، بل نكتفى أن يكون التنظيم بؤرة مركزية عالية المستوى يتوسع حجمه بتدرج آمن وفق نظرية الشروط المتشددة، ويكون مدى توسعه كافيا لتعويض الفاقد بالموت والشيخوخة والانعزال، ثم كافيا لرصد عناصر دعوية مشرفة على التوسع الذى يحصل فى الولاء، أى كلما ازداد الولاء فى الحجم: ألزمنا أنفسنا بتنظيم دعاة جدد يتولون إدامة معنوية الموالين الجدد وتغذيتهم بالفكر وتجميلهم بالأخلاق، مع تنظيم آخرين ينتجون توسعًا آخر، فى عملية متصاعدة، لكن هذه العملية المتصاعدة، الداخلية التنظيمية، والخارجية الولائية: تحتاج حلقات تدور حول المحور القيادى، وهذه الحلقات هى أهل الاختصاص العالى المستوى، من علماء الشرع والوعاظ والمفكرين والإعلاميين والأدباء والشعراء والمحللين

السياسيين والرموز الدعوية والصناعيين ورجال الأعمال ونبلاء العمل الخيرى وأعضاء البرلمان ورؤساء المؤسسات الدعوية، رجالاً ونساءً، ولا مجال للتخطيط الدعوى إلا أن يقبل هذا التحدى الثقيل والمهمة الصعبة ليدوم الأمر فى مجتمع معقد، والذى ألاحظه فى منهجية التربية المعمول بها أنها تعتنى بالتربية الداخلية بشكل مكثف، ولم تتكيف لهذه النقلة التخطيطية فى التوسع فى طلب الولاء، ولذلك أرى تطوير منهجيتنا ينبغى أن يأخذ ذلك بنظر الاعتبار وأن نتوسع فى التربية الخارجية الموجهة لجمهورنا، **والتى من وسائلها**: نشر الكتب الفكرية الدعوية والرسائل المبسطة، والمجلات الإسلامية، ونشر كتب العلوم الشرعية بطبعات شعبية، وعقد حلقات تدريس العلوس الشرعية، وإجادة مواقع الإنترنت، والشريط المسموع والمرئى والأقراص المدمجة، والعمل الإعلامى بصورة عامة، ويحدث تقدم جيد فى ذلك، ولكن بشكل مستقل، وكأن الأمر لا يعنى منهجيتنا التربوية، واللازم إجراء تنسيق لكل هذه الأعمال الفكرية والإعلامية وجعلها ضمن رقابة أجهزتنا التربوية، مع التركيز على إبراز رموز دعوية بعدد أكبر وإحلال تنسيق آخر بين كلامهم، لما له من تأثير تربوى، وربما تكون القناة الفضائية الإسلامية الثقافية هى المحور الرئيس الذى يمكن أن تدور حوله منهجية التربية الخارجية الموجهة للأنصار والموالين مثلما هى موجهة لتطوير الدعاة، ولست أفصل بين السياسة والثقافة، ولكن أمر القناة السياسية أشد، وحديثها ذو شجون.

❋ لكن حرصنا على ولاء الناس لا يعنى أن نحرص على رضاهم وننزل إلى مستواهم، إنما نرفعهم لمستوانا ما استطعنا، وإلا فإن فيهم بَطَرًا وجهلا وتمردًا، ويغلب على العامل أن يطلب من الداعية أن يجاريه، وأن يقره على شهواته وتساهله، ولكننا أصحاب ثوابت ومبادئ، فلسنا نقول إلا الحق، ولا ننطق إلا بما يرضى الرب، وبعض الجهلة من العامة على استعداد للملاحقة، وبقلة أدب يستفز.

وكان العامي قد جاء إلى الشيخ القُدورى رئيس فقهاء الأحناف ببغداد وصاحب المختصر

المشهور فى الفقه، فدفع إليه ورقة فيها استفتاء، «فاتفق الجواب على خلاف غرض المستفتى، فقال له: ياشيخ، أتلفت ورقتى» (1) فعوضه الشيخ ورقة من عنده.

فنحن نعمل فى محيط ملغوم بالجهل، وليست هى السلاطين فقط تؤذينا، بل الناس أيضًا، وقد يتسلط عليك جاهل فى المسجد الذى تنطلق منه فيسومك العذاب ويتهم ويفجر لسانه ويهذر، فتضطر أن تقرأ سبع مرات ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم] ونطق عشرًا: سلامًا، سلامًا، سلامًا...

* ويبقى أمر تطوير منهجنا التربوى أبعد من الحصر والتدوين، وكل مَن له تجربة عملية تصح منه الإضافة، وهو مدعو أن يبدع ويضيف معنى أو ملاحظة نقدية.

وإنا وجدناك أيها الأخ الداعية ذكيا ألمعيا صاحب كياسة، والدليل على ذلك أنك فهمت حال الأمة الإسلامية وأدركت طريق الاستدراك عبر العمل الدعوي وذلك فضل من الله تعالى عليك ميزك به عن أهل العجز الذين تسيبوا فكسلوا وانحرفت اهتماماتهم إلى دنيويات مفضولة وجلسوا على سفوح تلال الغفلة، ولذلك ندعوك إلى أن تُلبى مراد الله منك.

قد وهبك الذكاء بقَدَر، كما فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال: «كل شىء بقدر حتى العجز والكيس» .

فأنت ذكى بقدر الله.

وأنت داعية بفضل الله.

والمفروض أن تستطرد مع الحكمة الربانية فتحرص على تسخير ذكائك لخدمة العلم الشرعى، أو لتحليلات تكشف عالم السياسة، أو لإضافة وصية تربوية تحتل مكانها ضمن المنهجية العامة.

(1) أدب المفتى والمستفتى لابن الصلاح/ 147.

كَيسُك وذكاؤك ما اشتراه أبوك من السوق، إنما هو منحة ربانية خالصة ويليق أن تشكرها كشكرك الرزق والدينار.

فقم بنا نفكر، ونستطرد فى اصطياد اللمعات.

ثم اجلس بنا فى مؤتمر سويعات نتحرى صفة منهجية التربية الدعوية.

وادع معى ربنا الرحيم أن يعطّر ذكر نبينا الكريم بعطر شذى عبقٍ زكى من صلاة وتسليم.

* * *

obeikandl.com